



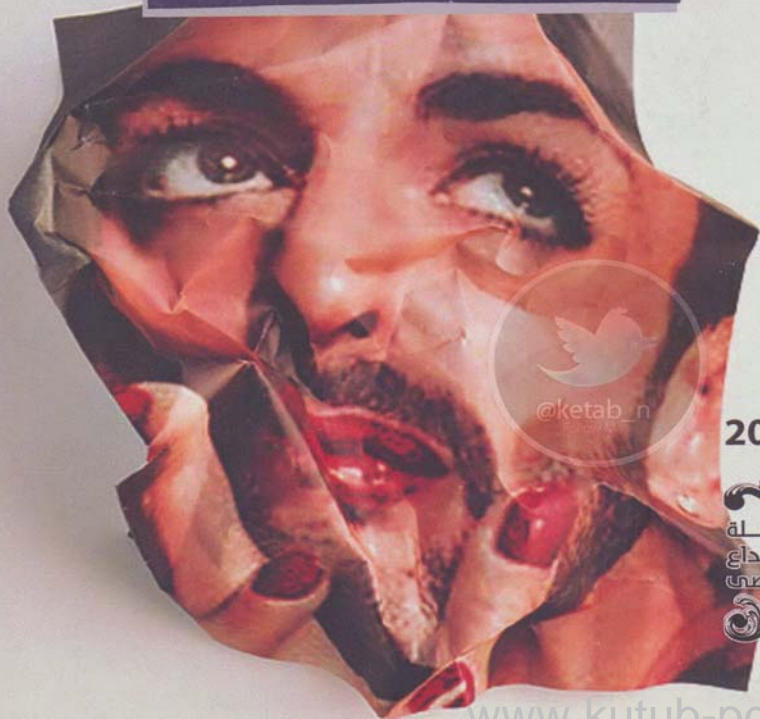
29.5.2015

روبير سوليه مزاج

ترجمة: إيمان محمود الهباش
مراجعة: داليا حسام الدين زعتر



المركز القومي للترجمة



2099

سلسلة
الإبداع
القصصي

مزاج رواية

تأليف: روبرت سوليه
ترجمة: إيمان محمود الهباش
مراجعة: داليا حسام الدين زعتر



2014

المركز القومي للترجمة

تأسس في أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة الإبداع القصصي

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2099

- مزاج

- روبير سوليه

- إيمان محمود

- داليا حسام الدين زعتر

- اللغة: الفرنسية

- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

MAZAG

By: Robert Solé

Copyright © Éditions du Seuil, 2000

Arabic Translation © 2014, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524

فاكس: 27354554

El Galalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سوليه ، روبير .

مزاج (رواية) / تأليف : روبير سوليه، ترجمة: إيمان محمود
الهباش، مراجعة: داليا حسام الدين زعتر .

ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤

٣١٢ ص، ٢٠ سم

١- القصص الفرنسية

(أ) الهباش، إيمان محمود (مترجمة)

(ب) زعتر، داليا حسام الدين (مراجعة)

٨٤٣

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١٢ / ٩١٩١

التسجيل الدولي : (0-101-216-977-978)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي
اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

تقديم

"مزاج"، رواية كتبها الروائي والأديب الفرنسي "روبير سوليه" وفيها يسلط الضوء على قصة شاب ترك القاهرة متجهاً إلى فرنسا في حقبة الخمسينيات، وكان في الثامنة عشرة من عمره، وهو يمثل نموذجاً لشاب شرقي أتى إلى باريس واستطاع أن ينسج بداخلها شبكة من العلاقات التي يصعب الوصول إلى منتهاها أو إلى الهدف منها... وفي إبحار مع الراوي، يصل القارئ - أو يظن أنه وصل- إلى حقيقة بطل الرواية "بازيل" وإلى أسلوبه في التعامل مع الناس على اختلاف مشاربهم، وكذلك إلى آليات شبكته وما ينعشها وهو "المزاج"، الذي قد يصعب ترجمته في العالم الغربي لكنه يترجم تلقائياً في الشرق.

وقد نجد أن هذا المفهوم يحوى معنى العفوية الذي يتفق إلى حد كبير مع المفهوم المتعارف عليه لدى الشرقي، والذي يفترض أن يجد المرء متعته في العطاء دون انتظار لأي مقابل؛ لذا نلاحظ أن "بازيل" يجد متعته ومزاجه في إسعاد الآخرين دون مقابل وفي حرصه على أن يتيح الفرصة للآخرين لكي يسعدوه بدورهم .

وعن شخصية "بازيل" يقول روبير سوليه: إنها شخصية مؤلفة ومخترعة وقد يكون لها ملامح من الواقع، إلا أنه قد اختزل ملامح عشرات الشخصيات الواقعية في هذه الشخصية الفنية .

وتعرض هذه الرواية وجهة نظر الكاتب في التناقض الواضح بين ثقافة مجتمعين: ثقافة الشرق القديم الذى مئى بالفساد والتحزب والتفضيل، وشقت الخرافة طريقا إليه؛ وثقافة الغرب الحديث القائمة على العقل والمساواة وتشق طريقها معتمدة على الكفاءة والأحقية والقانون.

وعلى الرغم من ذلك، يكشف الراوى على مدار الرواية وحتى نهايتها، ليس عن تجاوزات الشرقيين فحسب، ولكن عن عبثية وغرابة الشبكة التى نسجها ذلك الشخص فى قلب المجتمع الباريسى، والذى يضم طبقات اجتماعية مختلفة من رواد المقاهى والوزراء والعلماء ذوى الشهرة العالمية وقدامى المحاربين والمحامين والرهبان؛ حيث يجد كل منهم مأربه فى هذه الشبكة الخفية.

وعن الكاتب روبير سوليه، فهو شخصية جديدة بأن تحظى بمكانة فى ثقافة المصريين فقد ولد فى القاهرة عام ١٩٤٦ من أسرة تنتمى للجالية الشامية، التى وجدت فى مصر ملاذا وطمأنينة، وأبدعت نتاجا أدبيا كان له أثر كبير فى النهضة الثقافية. إلا أن قيام ثورة ٢٣ يوليو أدى إلى تقليص الوجود الأجنبى، وتبع ذلك هجرة

سعظم الشوام من مصر ومعهم أسرة روبير سوليه عام ١٩٦٤ بعد أن أنهى دراسته في ثانوية "الجزويت"، ليستكمل دراسته في فرنسا في المدرسة العليا للصحافة.

وفي عام ١٩٦٩ عمل سوليه محرراً في جريدة "لومند" الفرنسية واستمر فيها لأكثر من عشرين عاماً، متقللاً بحكم عمله مراسلاً بين روما وواشنطن في انقطاع تبتد ظلامه عندما عاد إلى مصر مرة أخرى بهدف تغطية افتتاح مستشفى عين شمس الذي ساهم الفرنسيون في بنائه.

وقد بدأت مرحلة جديدة في حياة سوليه لدى قيامه بجولة مع منظمة اليونسيف عام ١٩٤٨ في دلتا مصر، والتي كان يعرفها في طفولته وصباه، حيث جعل من التغيير الذي طرأ على هذه المناطق مادة لعدد من كتبه ورواياته التي تمثل الحنين إلى الوطن، وكأنه قدر يتوق إليه...

فعند احترافه الكتابة شق سوليه طريقه الأدبي ببعض الأعمال الروائية التي تجسد هذا الحنين مثل رواية "الطربوش" و"سيمافور الإسكندرية" و"المملوكة". ثم أصدر بعض المؤلفات التاريخية وثيقة الصلة بمصر وبأحداث موقفة لا تحمل أية رؤية من الخيال، بل تعتبر هدفاً للدراسات السياسية والاجتماعية، فقد تحدث فيها عن ظاهرة الـ"اجيبتومانيا"، مثل "مصر ولع فرنسي" و"رحلة المسئلة المصرية إلى باريس" و"علماء بونابرت" و"حجر رشيد" وغيرها...

وفى عام ٢٠٠٠ عاد روبير سوليه إلى عبادة الرواية ليقدم لنا أحب الروايات إلى نفسه، رواية "مزاج" - التى بين أيدينا- وهى كسائر أعماله الأدبية التى تمثل رسدا لأحداث دارت فى مصر فى فترة تاريخية محددة، قام بدراستها من مختلف زواياها وصاغها بدقة صحفى ماهر ومبدع أديب متمكن فى عمل أدبى يحرك المشاعر شأنه شأن لوحة فنية خلابة .

ثم لخص روبير سوليه حبه لمصر فى مؤلفه "قاموس عاشق لمصر" ليؤلف بعضا سحرية بين كل ما أحبه وأبغضه فى هذا الوطن، قاصدا بذلك التعبير عن حبه لمصر ورغبته فى أن يراها دائما على أفضل حال.

كما أراد سوليه استكمال الملحمة الروائية التى تتناول جالية الشوام وأسرة بطركاني، والتى تلقى نظرة فاحصة على أحوال مصر السياسية والاجتماعية والثقافية وما كانت عليه خلال فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، فكتب روايته الشهيرة "سهرة فى القاهرة" الصادرة فى باريس عام ٢٠١٠، وهى كسائر مؤلفات سوليه تعكس درايته العميقة بأحوال مصر وشعبها وتتناول بعض القضايا المهمة فى التاريخ المعاصر، كالعنوان الثلاثى، وأحوال مصر الاجتماعية فى فترة حكم جمال عبد الناصر، وتأثر مسيحي الشرق بأى تدخل أوربى عسكري .

وقد عمد سوليه فى عدد من هذه الروايات إلى سرد ذكرياته الشخصية، فهو يعتبر أن "الذكريات مصالحة مع الماضى ... والناس فى حاجة للعودة إلى ماضيهم".

لقد ظل روبير سوليه يعمل فى مجال الصحافة طيلة أربعين عاما بجريدة "لومند" الفرنسية- وتخلل هذه الفترة العديد من الأعمال الفنية التى ذكرنا أعماها أثرا - إلى أن تولى منصب رئيس تحريرها قبل تفرغه للكتابة فى مارس ٢٠١١، ليقدم لنا كتاب "الفرعون المقلوب" الذى يتمتع بطابع مصرى خالص يعكسه غلافه الذى يحمل صورة سيدة مصرية ترفع العلم المصرى وترتدى الحجاب شأنها شأن غالبية النساء المصريات.

ويعد كتابه الأخير تحولا جوهريا من الكتابة عن زمن الحنين إلى الوطن، إلى الكتابة الحية من قلب الأحداث، فهو "يروى بعذوبة واضحة حكاية مصر الأمس واليوم"، حتى أنه حرص على إثراء كتابه بشهادات ومعلومات وحقائق من قلب ميدان التحرير الذى تحول إلى أسطورة...

ومن أسطورة "الميدان" إلى أسطورة "بازيل"، يأخذنا "المزاج" فى نقلة قد تكون واسعة ولكنها تقتفى أثرا غاليا وعزيزا، ألا وهو الحب والانتماء إلى مصرنا الحبيبة ...

فإلى أحداث الرواية...

(١)

"إن لديه نفوذاً عريضاً"! هذا ما كان يقال عنه في القاهرة في إعجاب وصفير.

في بداية الستينيات كان ابن عمنا "بازيل باتركاني" واحداً من أقوى الرجال في باريس، ولكن لا أحد يعرف ما الذي كان يفعله هناك. فقد كان يبدو للبعض سمساراً، وللبعض الآخر تاجراً أو ممولاً. إنه على أية حال ودون شك رجل أعمال ذو شأن، فبعد عشر سنوات من رحيله عن مصر، هذا الذي دائماً ما كان يدعى بـ ب، قد أصبح أسطورة.

هنا كان ينبغي لنا أن نوضح الإشارة! هذا ما علّق به أحد أفراد العائلة بشأن إحدى الممثلات الفرنسيات، التي حققت شهرة بالغة في ذلك الوقت.

كان البعض يقول "بببي"، وآخرون يقولون "بابي" أو حتى "بابا" (أي أبي باللغة العربية)، فقد كان له لقب في كل لغة من اللغات الثلاث الماثلة في عالمنا متعدد الأجناس، وهو أقل ما يمكن أن يوصف به رجل يتمتع بمنزلة كهذي.

نجاحه كان السبب فى ظهور الأقاويل الغامضة والمتضاربة. ومن الجدير بالذكر، أن تناقل المعلومات بين مصر وباريس كان سيئاً للغاية وذلك لأن السفر إلى الخارج إما أنه كان ممنوعاً، أو دون عودة، حيث كان يُتوخى الحذر فلا تذكر أى تفاصيل فى بريد تفتحه الرقابة.

ولا يكاد أحد منا يحصل على إذن الخروج من مصر للتوجه إلى باريس حتى توجه له نصيحة واحدة، ألا وهى:

- بمجرد وصولك هناك لا بد لك من الذهاب لرؤية "بازيل".

بالتأكيد كنت سأذهب لرؤية بازيل حتى لو تصديت لجيش من الحراس، أو تصادمت باثنى عشر بابا مصفحاً. فعلى من غيره كنت سأعتمد فى باريس؟ فقد كانوا يؤكدون لى قائلين:

- إنه سيجد لك بيتاً.

ومن ثم كان ذلك هو الأسلوب المتبع لتزيين كل شيء ... وذلك لأنهم كانوا يعنون "بالبيت"، إما الاستوديو أو غرف الخدم التى يصعب على تخيلها مسكناً لى.

وفور وصولى إلى مطار أورلى، حاولت الاتصال بابن العم العظيم فى ظل صدمة السكون القاتل الذى أسدلته الممرات الطويلة الزجاجية. حينئذ كان ينبغى على إيجاد عملة وجهاز تليفون وكذلك معرفة طريقة الاستخدام، وذلك بعد استرداد الحقيبتين اللتين كنت قد اصطحبتهما معى من مصر مع حقيبة اليد ... وبعد مرور ثلاثة

أربع ساعة من تلك المحاولات، أدت قرص الهاتف بأصابع مرتبكة بعض الشيء، وكنت أعتقد أن الجملة الرصينة التي كنت قد أعددتها بعناية لأتوجه بها إلى سكرتارية "بازيل باتركاني" كانت ولا بد أن تمكنني من الحصول على موعد دون الانتظار طويلاً.

وكانت المفاجأة الكبرى أن "بازيل" هو الذي قام بالرد على متغنياً بكلمات لم يلدغ فيها بالراء بلكنة يصعب تقليدها، والتي لم أسمعها سوى من ساعات قليلة قائلاً:

صباح الخير. نعم هنا بازيل باتركاني... من...؟ أحد أبناء فيفيان؟

على الرغم من أن اسمي لم يكن يمثل له شيئاً من قبل، فإنه قام باستدعائي قائلاً:

- غدا بعد الظهر في الساعة الثالثة والنصف في العنوان التالي: ٥٣ مكرر شارع ريمون لوسوران مترو برنتي.

لقد كانت المعلومات تتعاقب كالبرق كما لو كان متعجلاً للقاءني:

- السلم رقم (د) في آخر الساحة. نعم، (د) مثل ديسكو فيل والباب من جهة اليسار في الدور الرابع.

أعدت سماعه الهاتف إلى مكانها مضطرباً بعض الشيء، فلم يكن هناك سبب يجعل "بازيل" يتذكرني فقد كنت أرثدى شورتا لدى

رحيله عن مصر؛ علاوة على أن عائلة والدتي كانت كبيرة بدرجة لا تسمح له بتذكر أفراد يصغرونه بخمسين عاما، فلم تكن سوى أولاد عم، فجدّه كان شقيقا لجدى.

كانت سمعة هذا الشارع طيبة، فعندما وصلت إلى أوربا للمرة الأولى ولم أكن أعلم شيئا عن باريس، ظننته حيا راقيا يشبه الحى السابع عشر حينما نزلت هناك فى فندق صغير.

وعند مخرج مترو برنتى صدمنى ضيق الشارع وظلمته وأمام رقم ٥٣ مكرر تساءلت إذا ما كنت قد أخطأت العنوان، حيث كان المدخل مظلمًا وذا حوائط مهدمة ويطل على أربعة أبواب، أ،ب،ج... أما الحرف الرابع فقد كان ممسوحا. صعدت سلما ضيقا ذا درجات عالية مغطاة ببقايا سجادة بنية اللون، وكان الطابق الأول ذا رائحة كريهة تغم النفس. أما الدور الذى يليه فقد كان ينبعث منه صوت دوى مشادة زوجية، وكذلك عواء كلب ينبح بإصرار.

وفى الدور الرابع كان الباب على الشمال ومكتوب عليه "رن وادخل"، وفعلت ذلك بعد ما ترددت للحظة. وهناك كان يوجد ممر كئيب يؤدي إلى حجرة حوائطها عارية ولا يزينها سوى عدة مقاعد، حيث كان ينتظر رجل مسن يسعل سعالا خفيفا، ومعه سيدة ذات اشقرار زائف فى الأربعين من عمرها. فقلت "صباح الخير"، فردا عليّ دون اكتراث، وبعد برهة من الوقت فُتح باب فى الممر المظلم وسمعت بازيل يودع شخصا لا أعرفه. وهنا وقفت السيدة ثم جلست

على مكتب دون أن تعطيني فرصة لأرى ابن عمي، أما الرجل
المسن فقد كان آنذاك يبصق في منديله.

لقد كانت الساعة حوالي الرابعة عندما سمحوا لي بالدخول
وهنا رن جرس الهاتف؛ الأمر الذي منع بازيل من أن يعانقني كما
كان متوقعًا.

وبإيماءة منه دعاني للجلوس وأمسك بالتليفون، حيث كنت
أراقبه خلسة، فلقد كان خمري اللون، فاتح العينين، متوسط القامة
وكانت ملاحظته أكثر غلظة من تلك التي تبدو في صور مصر
الجديدة.

لم تكن ملامح هذا الرجل تشبه ملامح الفتى الأول في شيء،
ولا وجهه للشبه بينه وبين الأمريكيين ذوي الأسنان العاجية وفك رعاة
البقر الذين كنا نجمع صورهم الملونة الموجودة في علبة اللبان ونحن
أطفال... إن هذا الرجل الذي كان يقترب من الأربعين بقميصه ذي
الياقة المفتوحة لا يشبه بأي حال من الأحوال الصورة التي قد كنت
رسمتها له في مخيلتي من قبل! رجع بازيل بالكرسي إلى الخلف ومدَّ
ساقيه، ووضع رجليه فوق المكتب - ذلك المكتب المتهالك المصنوع
من شجر الصنوبر اللامع - وهو يعرض بكل بساطة حذاء الموكسان
البالي حيث واصل حديثه التليفوني قائلاً:

- نعم لقد أوليت الأمر اهتمامًا، جوزيف بوريل من مكتب
الوزير، أوبرا ٢٥٠٢٥ وأبلغه أنك من طرفي. نعم بي بوريل مثل

بى باتيسكاف، لقد حدثته عن هذا الموضوع وسيسهل لك الأمر ثم استطرده قائلاً:

- عفوا... إن ذلك يسعدنى...

ولكن هل كان هذا هو ب ب بالفعل؟ فإن ذلك الحال يدهشنى، حيث إنه يفتقر إلى الأناقة المشهور بها سكان مصر الجديدة والتي سنتناقض على الأقل مع هذا الديكور. فالبنطلون لم تكن تظهر فيه كسرة الكى وكذلك قماشه ليس من النوع الفخم. وربما كنت سأؤكد أكثر من هويته لو كان قد ارتدى فى معصمه إحدى السلاسل الفضية التي كان يروق لنا شراؤها فى ذلك الوقت، والمزينة بالحروف الأولى من الاسم.

ولكن للأسف لم يكن يرتدى إلا ساعة ضخمة مينتها صفراء من القدم، ترجع قطعاً إلى عهد القديس مانوشال. عندما وضع بازيل السماعه، كان لا يزال فى جلسته هذى، شبه ممدد وهو يبتسم قائلاً:

- هكذا جئت لتدرس فى باريس؟

لم أجرو على أن أتحدث إليه دون تكلف وشرحت له فى بعض جمل عزمى على تسجيل اسمى فى كلية العلوم الاقتصادية. فقال بازيل بلهجة ساخرة:

- كلية العلوم الاقتصادية! ولم لا؟

فقلت له إنى أبحث عن غرفة سعرها مناسب، فرد قائلاً:

- فكم تستطيع أن تدفع إذن؟

- لا أعرف ولكن ربما مائتى فرنك شهرياً...

ففكر لبضع ثوان ثم فتح مفكرة تليفون لونها بنى فاتح وجلدها متآكل ودون أن يستشيرنى رفع السماعة ليطلب رقمًا مديراً فى هدوء قرص الهاتف بواسطة قلم كان يمسك به وتحدث قائلاً:

-آلو، السيد باردو؟ أنا بازيل باتركانى. نعم، على ما يرام، أشكرك...

كان بازيل ينظر إلى نظرة ماكرة وكأنه يلهو، واستطرد قائلاً:

- اسمع عندى شاب قريبي وهو مصرى يبحث عن حجرة...حسناً، حسناً، هذا جيد جداً، سأرسله لك، نعم إنه كذلك، مع السلامة.

ثم كتب اسماً ورقم تليفون على ورقة صغيرة وأعطاهما لى وقال:

- هذا الرجل مالك لحجرات بالقرب من مونيرنص.

فأجبت:

- سأذهب إلى أى حى كان.

كان بازيل ينظر وهو لا يزال مبتسماً ثم قال:

- آه، أنت إذن ابن فيفيان...

فحاولت جاهداً أن أقول بعض الجمل ولكنه تركنى فى ارتباكى مشغول البال بأفكار وكان ذكريات قد أخذت تتوالى وتتعاقب فى رأسه. ثم سألتنى سؤالين أو ثلاثة فأجبته قدر استطاعتي.

وعندما دق جرس الباب الخارجى عرفنا أن هناك زائراً جديداً فقال بازيل أسفاً:

- إنهم فى انتظارى. سنلتقى مرة أخرى فلا تتردد فى الاتصال بى. ثم وقف ووضع يده على كتفى وهو يقودنى إلى باب الخروج.

نزلت مرة أخرى مشوش الفكر، أما الزوجان الموجودان فى الطابق الثانى فكانا على ما هما عليه من تبادل الشنائم، أما الرائحة فلم تكن قد تلاشت بعد.

فقلت لنفسى: ترى ما هذه المهنة التى يزاولها بازيل؟ فلم تكن هناك أى إشارة لا على باب شقته، ولا على صندوق الخطابات فى أسفل المبنى. كما بدا لى مريباً مظهر الشخصين اللذين لمحتهما فى صالة الانتظار، وفى هذه اللحظة تذكرت السمعة السيئة لجده فرديناند باتركانى...

أما الرجل البرجوازي ذو الشارب فقد أجر لي غرفة خادمة بالقرب من مونبرنص، ولم يطلب ما يثبت مورد رزقي ولا حتى مبلغا من المال على سبيل التأمين، كما أنه لم يستغلي؛ إذ لم يطلب سوى مائة وخمسين فرنكا إيجارا شهريا للغرفة.

وربما كان ينبغي على الاتصال بابن عمي في الحال لأقدم له الشكر، إما تليفونيا أو عن طريق خطاب ولكن لم أفعل شيئا من هذا، ففي سن الثامنة عشرة قد ينقص المرء أحيانا بعض الذوقيات.

وقطعا لم تكن لدى أية رغبة في معاودة الاتصال ببيازيل، لأنه قد أحبطني إحباطا شديدا وتحطم حلمي بأكمله. ومن الآن فصاعدا لن أعتمد إلا على نفسي حتى يكون لي مكان تحت الشمس.

(٢)

بعد وصولي إلى باريس بعدة أسابيع كنت كسمكة في الماء، فقد أخذتني دوامة الحياة الدراسية التي لم تخل من الطابع الممل الشاق، ولكن التحرر الغريب للفرنسيات من سني قد أعطى لنظريات كل من آدم سميث وستوارت ميل شيئاً من النسبية الممتعة.

في مصر لم أكن مواطناً فرنسياً إلا من خلال قراءاتي، ولأن أجدادى ليسوا من قدامى الفرنسيين (الجالوا) لم أستطع أن أنتسب إلى كل من بيكاسين أو القديسة جان دارك، ولا إلى حيوانات لافونتين ولا إلى الكونت دي مونت كريستو، فقد كنت أعيش في هذه اللوحات الكبيرة المعلقة في الفصل على السبورة والمليئة بالكروز المجهولة في بلد الصحارى والأسطح؛ سطح القرميد وسطح المداخل وسطح السندرة وسطح البيوت المتراسة على خط واحد، وكذلك سطح الغابات الشاسعة وحزم التبغ والبقر السمين والفلاحات وهن يملأن جرار اللبن.

والآن لامست أخيراً هذا الواقع الفرنسي الذي طالما تخيلته، واكتشفت صخب فرنسا وعبقها، وكان يستحيل أن يحبطني كل ذلك، فقد فاق كل خيالي.

فى مطعم هال الصغبر بفرنسا التى وقعت فى غرامها،
بهرتنى ملامح نادلة عارية الكتفين مبتسمة تهزول بين المناضد لتعيد
الزبائن اللاهثين وراء النساء إلى أماكنهم قائلة لهم:

- انظر ولا تلمس.

إن فكر العالم كله وحريرته الكاملة قد اجتمعا فى هذه الأنثى
الحقيقية "ماريان" ذات الصدرية المبللة بالعرق. وفجأة ظهر بازيل
مرة أخرى فى حياتى وقد كدت أن أنساه، وكان ذلك من خلال
سطين نقشهما نقشاً رديناً فى ظرف:

٢٩ نوفمبر ١٩٦٣

- أتمنى أن يسير الحال معك على ما يرام فى باريس. أود أن
أطلب منك خدمة صغيرة فهل يمكنك الاتصال بى أو المرور عليّ
غدا الخميس بعد الظهر فى شارع ريمون لوسوران؟
أشكر.

بازيل باتركاني

لقد ألقننى هذا الخطاب الشبيه بالاستدعاء. فقلت محدثاً نفسى:

- خدمة؟..... أى خدمة؟ فعلى أى شيء أقدر أنا الغريب الذى
لم أكد أصل إلى فرنسا حتى أقدم خدمة لأى أحد؟، وقبل كل شيء

كيف عرف عنواني؟ دون شك عن طريق ذلك الرجل ذى الشارب الكثيف والنظرة الزائغة الذى كنت أرسل إليه الإيجار بانتظام عن طريق البريد ولم أره قط.

وفى الأسبوع الماضى وبالقرب من منطقة الأوديون، كنت قد قابلت صدفة صديقا لوالدى فسألنى إن كان الوضع فى باريس يروق لى وإن كنت أشكو من الوحدة أم لا، فذكرت اسم قريب لى فاندعش صديق والدى وتمتم قائلا:

- من؟ بازيل باتركانى؟ إنه لا يشبهك فى شيء. وأتمنى ألا يحاول أن يغرقك فى الأعيبه. فابتسمت متعمداً لأخفى جهلى بالأمر وإلى هنا انتهى بنا الحديث.

فى تلك الليلة لم أنم جيدا وكنت أسترجع دائما الصور التى صدمتني منذ ثلاثة أشهر مضت.

وفى كابوس داهمنى، كانت صورة ابن عمى تختلط مع صورة مراقب جمارك مصرى كان مسلحا بكرياج وكان يتهمنى بسرقة حرف (د) من ديسكوفيل.

وفى الحقيقة، لم أكن أريد أن أستدرج إلى نشاط مشبوه مهما كان الثمن، إذ لم يكن لدى سوى بطاقة إقامة مؤقتة.

ولقد كنت وما زلت متأثرا بمناخ الخوف الذى كانت تشيعه شرطة جمال عبد الناصر.

وراودتني فكرة تجاهل الأمر وكأن الظرف قد فقد عن طريق البريد، إلا أن بازيل كان سيعاود الاتصال بي، ألم يكن لديه نفوذ كبير كما كان يقال؟ إذا فالأفضل أن أذهب إليه في الحال، وقد أجد قطعاً حجة لرفض الخدمة التي كان سيطلبها مني.

وتخوفت من التحدث إليه عبر الهاتف وفضلت أن أذهب إلى شارع ريمون لوسوران بعد ظهر يوم الخميس وانتظرت حتى أكون وحدي لأدخل الساحة وأختبئ في "بئر السلم"، لولا نباح كلب عنيف أدهشني، وأن أحداً كان يزجر الكلب وأغلق الباب الموجود في الدور العلوي.

وعند طريقة الدور الرابع كان هناك يافطة مكتوب عليها "رن وادخل" وهنا كنت سأرجع ولكن فُتح الباب وظهر ابن عمي، ففزعت قليلاً وقال وهو يبتسم:

- آه، أهو أنت؟ ادخل.

كانت صالة الانتظار خالية فأدخلني إلى مكتبه ودعاني للجلوس وسألني عن حالي في باريس.

فأجبت أن كل شيء على ما يرام ولكنني كنت مشغولاً للغاية واستطردت قائلاً:

- على فكرة أشكرك على الحجرة.

فرد قائلاً:

- على الرحب والسعة إن ذلك يسعدنى.

لقد كنت راغباً فى أن أحتفظ بالمسافة بينى وبينه ولذا كنت أتجنب أن أحدثه دون تكلف أو احترام.

ثم قال بازيل:

- هل لك أن تقدم لى خدمة؟ إن هذه الخدمة لصديق سيترك باريس لمدة أسبوعين ويملك أشياء ثمينة ويخشى ترك شقته خالية. فهل تقبل أن تقيم فيها حتى يعود.

فوجئت بهذا السؤال وحاولت أن أجد إجابة مناسبة فقلت:

- فى الحقيقة إن دراستى تمنعنى من عمل أى شيء آخر.

فرد قائلاً:

- إن هذا الرجل يسكن فى شارع فلورونس على بعد خطوات من مونبرنص، ولن تحتاج إلى تغيير الحى.

ولكى أكسب وقتاً ابتسمت ابتسامة بلهاء قد يفهم منها موافقتى.

فقال:

- أشكرك. كنت متأكدًا أن من الممكن الاعتماد عليك.

كان من الممكن أن يحمل صديق بازيل باتركاني اسما من صقلية أو آثارا لجرح ويرتدى نظارة سوداء... ولكنه كان يحمل اسما عاديا لا ينتمى إلى النبلاء. كذلك كان بيير لوساج ذا شعر قصير وكثيف وهيئة مهندس طرق وكبارى وهذا ما زاد شكى فيه. كان صديق بازيل يسكن فى شقة من شقق الطبقة المتوسطة دون أى مظهر لثراء باهر وذلك وسط شارع فلورونس الذى كثيرا ما يخلو من المارة. فلم يكن هناك أى مجال للشك فى قاطن هذا البيت.

إنه هو الذى فتح لى الباب بنفسه، ثم أدخلنى فى صالون مظلم أتمن ما فيه جهاز راديو قديم، ولكن هل كان السيد لوساج يدعى حقا لوساج؟ لقد دعانى هذا السيد إلى الجلوس وعرض علىّ مطلبه وهو أنه: ينبغي أن أكون موجودا فى هذا المنزل أثناء الليل وأن أبقى فيه على الدوام غرفة منيرة، وكذلك أورد على التليفون فى نهاية المساء. حيث كان من الممكن أن يتصل به أحد الأشخاص من نيويورك ليترك رسالة فأخبره بها عند عودته.

كانت الغرفة التى خصصت لى توجد فى نهاية ممر طويل دائرى وكان مرفقا بها حمام. أما الحجرات المجاورة فكانت جميعها مغلقة. صاحبنى لوساج إلى نهاية الجانب الآخر من الشقة فى المطبخ ليوضح لى كيفية تشغيل الغاز، كانت الثلجة تمتلئ بالأطعمة التى يمكن لى تناولها. ثم أعطانى مجموعة من المفاتيح، وأسهب فى شرح كيفية غلق مختلف أقفال باب المدخل ثم استطرد قائلا:

- وعلى أية حال، إذا واجهتك مشكلة ما يمكنك الاتصال بالسيد باتركانى، هو ابن عمك أليس كذلك؟

وفى الساعة المتفق عليها من مساء اليوم الثانى، ذهبت إلى الشقة وفى المدخل كانت هناك حقيبتان موضوعتان الواحدة بجانب الأخرى وكان لوساج ينتظرنى لكى يتصل بتاكسى يقله.

وأخذ يوصينى توصيته الأخيرة بشأن كيفية غلق باب المدخل ثم حمل أمتعته واندفع داخل المصعد، فوجدتتى وحدى أتضور جوعاً وتساءلت:

- ترى، أين تكون الأشياء الثمينة التى نوّه عنها بازيل؟ قطعاً ستكون خلف إحدى هذه الأبواب الموصدة جيداً.

ولم يكن جهاز الراديو الموجود بالصالون يعمل، وأما الكتب التى كانت تزين المكتبة، فكان معظمها يتعلّق بالعلوم الطبيعية والشعر كما كانت هناك عدة إصدارات لمجلة "إيلوستراسيون"، موضوعات شتى ولكنها تبعد كل البعد عن اهتماماتى الحالية.

ذهبت إلى الفراش فى ساعة مبكرة ولكن دون أن يداهمنى النوم. وكانت تجول بخاطرى إشاعات غير واضحة بشأن السيد باتركانى، ففى مصر كان الناس يقولون إنه قد أهدر فى فترة وجيزة الثروة التى ورثها عن جده وعلى النقيض يؤكد البعض أنه جمع مالا لا بأس به من تجارة غير محددة.

وحوالى الساعة الحادية عشرة، رن جرس التليفون فجريت نحو المدخل الذى تركته مضاء حيث كانت هناك سيدة تطلب "إيف"، فأجبت أن الرقم خطأ فأغلقت الخط دون أن تفكر أن تعتذر.

وظل صوت العاهرة المبحوح يلاحقنى لوقت طويل وعدت إلى غرفتى وأغلقت على نفسى وقررت عدم النهوض تحت أى ظرف حيث هدأنى هذا القرار ونمت أخيراً.

تغيبت طوال النهار وألهتني الحياة الجامعية عن التفكير فيما كنت أفكر فيه. وبعد الغداء، عدت إلى قلعة لوساج، ولم أجرؤ أن أدعو أى زميل وكذلك لم أدخل المطبخ، كنت أكتفى باستخدام الحمام فقط قبل أن أختبئ في غرفتى.

كان شارع فلورونس واسعاً ومظلماً لأنه قطعاً كان أقل الشوارع ازدحاماً في باريس.

لم يكن للعمارة حارس، ولكنها كانت مزودة بإنترفون. وفي غضون الأيام التالية أفرغنى جرس الباب السفلى؛ كانت المرة الأولى نحو الساعة العاشرة صباحاً حيث خرجت في وقت متأخر عن العادة، فكان ذلك هو ساعى البريد الذى فتحت له فصعد لإعطائى طرداً لببير لوساج وشعرت أنه يمعن النظر إلى بصورة غريبة، فهل اندهش هو الآخر من خفة هذا الطرد؟ هذا وقد تعمدت ألا أوقع توقيعى المعتاد على إيصال الاستلام الذى قدمه لى.

أما المرة الثانية فكانت فى الثامنة مساءً، كان هناك شخص غريب يتكلم، إنه قطعاً مندوب؛ حيث كان يتحدث بصوت عال فى الإنترنت، لم يكن الصوت صافياً فحال ذلك دون سماع ما يقول، أعدت سماعة الهاتف ولم أستجب لاتصاله التالى. وقد تعجبت أن السيد لوساج لم يحدثنى عن الإنترنت، فتركزت كل مخاوفى على هذا الاتصال.

كان صديق والدى الذى قابلته مقابلة قصيرة بالقرب من منطقة الأوديون، لبنانياً حاصلًا على شهادة الدراسات العليا فى التجارة. وكان معروفًا بالتقشف والاستقامة وكان يشغل منصب نائب رئيس مؤتمر القديس سان فان سون دو بول فى بيروت. أما مؤسسة الاستيراد والتصدير التى كان يمتلكها، فقد كانت تمتد العديد من بلدان الشرق الأوسط بالأجهزة الهيدروليكية، حيث كان غالبًا ما يأتى إلى باريس، فلقد كان لديه مكتب فى شارع ريفولى.

وبحجة أننى أبحث عن عنوان ما، ذهبت لأطرق بابه كان السيد إميل الفارس طويلًا ورفيعًا وذا وجه بارز التقاطيع، وذا بشرة شديدة السمرة وتحيط بعينيه نظارة أنيقة ذات إطار معدنى ويتمتع بحزم المعلم. وأضفى اللون الداكن والخطوط الظاهرة فى حلته مزيدًا من الصرامة على هيئته.

وما إن نطقت اسم ابن عمى، تعجب قائلاً:

- ياه، أهذا هو!

منذ أربع سنوات مضت ولدى إنشاء مكتبه في باريس كان السيد إميل الفارس يحاول الحصول على تصريح صعب المنال؛ وذلك لأسباب معقدة لم يفصلها لى ولا لأحد من زملاء دراسته القدامى، ممن كان في إمكانه مساعدته في حل هذه المشكلة وقال إميل الفارس:

- والدك الذى كنت قد قابلته في القاهرة في إحدى رحلاتى كان قد قال لى:

"لماذا لا تذهب لرؤية باتركانى؟ إنه ابن عم زوجتى. ويبدو أنه يتمتع بنفوذ كبير".

ثم ذهبت إلى العنوان المشار إليه فوجدته حانة مشبوهة فى حى لا يحتمل. وكأنه حانوت مراب، وعلى كل حال لقد عرضت عليه مشكلتى، فأخذ يسألنى عن شرعية مطلبى. فقلت لى نفسى الشرعية! هل أنا من البلاهة لأفكر فى أن أتلاعب بالقانون! إن أسئلته أثارت غضبى إلى حد كبير، بل ودفعتنى إلى الإشارة إلى دبوس وسام الشرف. وعلى الرغم من ذلك تحدث طويلاً عبر الهاتف وأخذ يسأل هذا وذاك ليتأكد من شيء لا أكاد أعرفه وأخيراً صرح لى قائلاً بنبرة رضا:

- نعم هذا جيد.

ورفع السماعه مرة أخرى وفي أقل من دقيقة- حقيقة - رتب
لى مقابلة مع موظف كبير قام خلال أسبوع بتسليمى التصريح
المذكور!

فقلت:

- لا أكاد أرى ضرراً فى ذلك...

- تمهل! فلقد عدت إلى الباتركانى هذا فى غضون بضعة أيام
ومعى بعض الأموال رغم أننى أكره الرشوة، ولكن فى هذا الوقت لم
يكن لى خيار آخر، وعندما قلت له "أود أن أعرف كم سأدفع لهذا
الموظف الكبير الذى أرسلتلى إليه؟" فأذ به يبتسم ابتسامة عريضة
ويقول: "لا شيء على الإطلاق" فاستشعرت على الفور أن هناك
ملعوبا، فأنا لست بطفل وعلى دراية تامة بمختلف الأعمال؛ إذ إننى
أعمل فى هذا المجال منذ ثلاثين عاماً ورأيت كل الأنواع من هذه
العمليات...

فقلت له: "حسناً، فكم ينبغى أن أدفع لك؟"

فهز رأسه وقال "لا شيء فإنها خدمة بسيطة لا أكثر" فدهشت.
والححت عليه ولكن دون فائدة، إذ لم يرد أن يسمع شيئاً. فى البداية
خفت أن تكون المسألة مجرد مساومة ثم أخذت أشك فى صلاحية هذا
التصريح، ومضت الشهور وها نحن الآن على مشارف العام الرابع
وكل شيء يسير طبيعياً بفضل الله!

ثم أمسك بخشب المكتب.

فسألته:

- ألم يتصل بك بازيل بعد ذلك؟

- لم أعد أسمع عنه شيئاً على الإطلاق وإذا حدث ذلك فعن طريق غير مباشر أى بواسطة أشخاص آخرين كانوا قد تعاملوا مع هذا الشخص الخطير؟

- خطير؟

- بالطبع خطير! فمن أين يستمد نفوذه؟ ومن أى صفقة مريبة؟ فإننا لم نشاهد قط رجلاً ليس له وظيفة معينة ولديه مثل هذا القدر من العلاقات ولا يطلب شيئاً. سوف تعلم يا صديقي الشاب أنه لا يوجد شيء دون ثمن فالثمن لا بد أن يدفع يوماً ما وأنا أكره الدفع الآجل مثلما أكره الطاعون، فهذه الأنظمة تشبه أنظمة المافيا.

وهنا بدأ إميل الفارس ينفعل ويتساءل:

- ترى هل يعمل لحسابه الخاص أم أنه الأداة الخفية لسلطة ذات نفوذ؟ إنه على أية حال خارج عن القانون؟ إن للناس الشرفاء مكتبا يديرون أعمالهم من خلاله وكذلك يافطة مثبتة على الباب (وكان يشير إلى مكتبه المصنوع من شجر الأكاجو ويمثل بيده فعل التثبيت) وموظفين وكذلك عائداً معلناً، أما بازيل فيفتقر إلى كل ذلك وحتى إلى بطاقة تعارف، فالمعاملات عنده تتم دون وثيقة مكتوبة أو شهود.

وواصل حديثه بصوت أكثر جدية:

- فى هذه السنوات الأخيرة حدثتلى عدد من الأشخاص عن بطولات هذا الرجل الذى يحقق المستحيل عبر مكالمة تليفونية ولا أحد يعرف كيف؟ ولماذا؟

-إن اللصوص العاديين على الأقل يطلعون الآخرين على مطالبهم، أما هنا فالأمر يبدو أكثر خطورة، ولكن لماذا تحدثتلى عنه؟
- عليك إذن تجنب هذا الشخص.

وأكمل قائلاً:

وسأحذر والدك من تصرفاته.

بالطبع كنت أجهل أن بازيل قد تعرض لاستجواب من قبل الشرطة، وكان ذلك قبل عدة سنوات من وصولى إلى فرنسا، لقد حدث ذلك عقب بلاغ سرقة تقدم به مستأجر آخر فى العمارة رقم ٥٣ مكرر الموجودة فى شارع ريمون لوسوران، الذى قد سرقت مجوهراته فى وضح النهار. وفى خطاب موجه إلى قسم الشرطة من مجهول ورد فيه ما يحدث من روحت وغدوات مشبوهة فى الدور الرابع، وعندما سئل بازيل عن نشاطه هذا رد بكل بساطة:

- إننى أستقبل أشخاصا بصدد أعمال خاصة.

وفى اليوم التالى تقدم مفتشان مدنيان لإجراء التفتيش الدقيق وفى وقت وجيز أنجزا المهمة سريعاً، حيث كان المنزل فى مجمله خالياً. ولم يجدا فى المكتب سوى قوائم مليئة بالأسماء والعناوين، هذا إلى جانب دلائل التليفون التى تحير من عددها وتنوعها؛ حيث إن ما كانت تحويه من أرقام كان يكفى للاتصال بجميع أرجاء فرنسا ويمتد ليشمل نصف قارة أوروبا. ولكن إلى أن يثبت العكس، فلا جرم فى امتلاك المرء عدة دلائل هاتفية، مما حمل المفتشين على الخروج وهما يدمدمان.

وبعد عدة أيام، عاد مستأجر الدور الثانى الذى قد تقدم بالشكوى إلى قسم الشرطة يكسو وجهه الخجل فقد عادت إليه مجوهراته التى كان قد أخذها ابن له إثر سوء تفاهم بينهما. ومن ثم حفظت القضية، ولكن فى الشهر التالى، نقل المفتش الرئيسى للحى الرابع عشر إلى حى آخر، فهو الذى كان قد ارتكب حماقة توجيه الاتهام لبازيل باتركانى.

(٤)

فى اليوم الخامس جاءت مكالمة تليفونية، فذهبت إلى المدخل لأرد على الهاتف. كانت المكالمة من نيويورك من متحدث ذى لهجة إسبانية يخبر عن تغيير "تاريخ المؤتمر المتفق عليه"، فدونت المعلومة متجنباً كثرة الكلام وذكر اسمى. وفى اليوم التالى، حوالى الساعة الثامنة دق جرس الباب وكان الجار القاطن فى الطابق الأسفل- وهو يرتدى الروب دو شمير- قد جاء ليخبرنى أنه لاحظ بقعا مريية على سقف مطبخه فسألنى بصوت عدوانى:

- ألم تتركوا صنبورا مفتوحا؟

فأكدت له أننا لم نترك صنبورا مفتوحا فى هذه الناحية من الشقة منذ عدة أيام، ولكنه أراد أن يتأكد من الأمر بنفسه، فاجتاز عابرا المدخل والطرفه، ولاحظت أنه يلقي بنظرات خاطفة على المكان. كان المطبخ فى أحسن حال وعلى الرغم من ذلك فقد أصر أن يعرف أرقام تليفون شركة التأمين الخاصة بالسيد لوساج ووعده بالبحث عنها.

ولذلك، حاولت أن أتصل تليفونيا ببازيل بتركانى خمس مرات أو ست فى الصباح، ولكن الهاتف ظل ىرن دون رد. فذهبت لمتابعة

محاضراتي في الكلية وفي اليوم التالي قمت بعدة محاولات أخرى ولكن دون جدوى، حيث إن بازيل لم يرد على الإطلاق! فسألت نفسي: هل كان على إخبار الشرطة؟ وتخلّيت نفسي في العربة التي تقل المساجين متجهًا إلى السجن... لذا قررت ألا أبرح مكانى.

وكان السيد لوساج قد حدد موعد عودته يوم الجمعة بعد الظهر وكنت أنتظر مجيئه هذا، حيث يدفعني الخوف أكثر من توقي إلى لقاءه. واقتنعت الآن أن هناك شخصًا آخر سيأتي مكانه.

وحتى الساعة الحادية عشرة مساءً، لم يكن هناك أى شيء يشير إلى أنه سيأتى. وكنت أتصفح مجلة فى الصالون ولكن رأسى كانت تعج بالأفكار وكنت منتبها لأقل صوت، وللمرة العاشرة كنت أكرر ما سأخبره به:

- اتصال نيويورك، والطرد المسجل، والتسريب الكاذب

للماء...

وفى منتصف الليل تقريبا، قررت أن أذهب لأنام وكنت متأكدا أن النعاس لن يجد طريقا إلى جفونى. ولم أكد أن أتوجه إلى دورة المياه، حتى سمعت ضجيجا لمفاتيح تدار فى الباب، فدق قلبى بشدة.

عندئذ دفع لوساج الباب بقدمه، وهو يحمل حقيبتين ودخل وهو

لا يكاد يلتقط أنفاسه قائلاً:

- هل تتخيل لقد انتظرت ثلاث ساعات فى مدرج مطار إسطنبول! أما فى أورلى فقد تأخرت الأمتعة كثيرا قبل وصولها...

إذا كان فى إسطنبول حقا لا شيء يهمنى فى ذلك، إسطنبول، مكسيكو، ما أهمية ذلك؟ لم يكن لى سوى رغبة واحدة هى إعادة المفاتيح له والاختفاء بأقصى سرعة.

تساءل لوساج قائلا:

- هل كل شيء على ما يرام؟

فأخبرته باتصال نيويورك ووصول الطرد، فلمعت عيناه وأسرع نحو العلبة الموضوعه على كمودينو المدخل وفتحها بحذر شديد غير مبال بوجودى.

وبداخل هذه العلبة، كان يوجد شيء عجيب ملفوف فى عدة طبقات من الحرير.

فصاح السيد لوساج متعجبا:

انظر إلى هذه التحفة الفنية! أليست رائعة! وتحول وجهه إلى وجه عاشق ولم يبق لأى شيء وجود فى هذه الحجرة أمام هذا النوع المجفف من نجوم البحر ذات البريق الأزرق. وكان يمسك تلك النجمة بأطراف أصابعه مثلما يمسك قس القربان المقدس. ثم وضعها برقة متناهية داخل العلبة، وبعدما فتح باب ممر مقفول جيدا بالمفتاح، قال لى:

- تعال وانظر .

لقد كانت تنتظرنى لوحة مدهشة: كانت تشغل هذه الغرفة الواسعة عدة مناظير زجاجية وأصداف وخزف ومختلف أنواع المعادن... وذهب لوساج ليحضر غنيمته الجديدة ورفع زجاجًا ووضعها بين نجمتين أخريين فى مكان خال يبدو أنه كان ينتظر مجيئها.

وكرر قائلاً:

- أليست هذه معجزة خارقة؟ إننى لست غاضباً أن مؤتمر نيويورك قد تأجل لعدة أيام، لأن ذلك سيسمح لى بالتحدث عن هذه القطعة أثناء مداخلتى فى المؤتمر.

لم أعد متعجلاً الرحيل، ولكن الساعة كانت الواحدة صباحاً، فرددت له المفاتيح على مضض. ولكنه قال:

انتظر لدى شيء لك.

وأخرج من حقيبته الصغيرة جراباً به قلم حبر ذو ماركة شهيرة وقلم آخر رصاص جميل الشكل. وأكمل قائلاً:

- أنا أعرف ابن عمك لم يكن ليوافق على هذا فأنت تعرفه... ولكن على كلٍ لا شيء يمنعنى من أن أقدم لك هدية صغيرة.

بعدها تركته ببضع دقائق، لم أكن أتساءل عن بيير لوساج
أستاذ العلوم الطبيعية في معهد دراسة المحيطات في باريس والعضو
المراسل لكثير من أكاديميات أجنبية، ولكنني كنت أتساءل عن ابن
عمي غريب الأطوار.

(٥)

كيف أجد ابن عمي؟ فهو لم يعد يجيب على الهاتف. ولم يكن هناك أى سبب يدفعني للذهاب إليه إلا إذا كنت أود ترك انطباع ما وهو البحث عن مكافأة نظير الخدمة البسيطة التي أسديتها إلى السيد لوساج ولم يكن يتبقى إذن سوى اللقاء الطارئ، لذا قررت أن أترقبه عند باب العمارة الماثلة في شارع ريمون لوسوران دون أن أعرف إذا كان لا يزال يسكن هذا المكان.

ومنذ الثامنة صباحًا من أحد أيام الاثنين، ذهبت إلى هناك وذلك حتى لا تفوتني فرصة لقائه. وجدت مقهى بالقرب من العمارة رقم ٥٣ مكرر استطعت من خلاله أن أراقب المدخل، وكنت أمسك بيدي كتاب اقتصاد مفتوحا أمامي للتمويه، وذلك حتى لا يرتاب أحد مني واحتسيت فنجانا من القهوة ثم طلبت آخر... ونحو الساعة العاشرة كان لا بد أن أتأكد إذا ما كان بازيل قد وصل قبلي أو أنه قد مر من طريق آخر، فقررت أن أصعد.

حينها وجدت اللافتة "رن وادخل" ولكن الباب كان مغلقا وعلى عتبة الباب، هاجمتني أفكار مشوشة من بقايا ذكريات أو قصص قديمة.

لقد كان بازيل ينتمى للفرع الأقل تألقاً من عائلة والدتى. ولم تكن أصول ثروة جده فرديناند باتركانى الشهير بناندو بالشيء الذى يفخر به فى القاهرة، حيث بدأ ناندو حياته العملية من الصفر كرجل أعمال فى بداية هذا القرن وكان مرابطاً فى ريف مصر. كان صغار المزارعين فى ذلك الوقت يفضلون اللجوء إلى أمثاله من الأشخاص، بدلاً من التعامل مع البنوك التى كانت تطلب ضمانات. وفى نهاية حياة فرديناند باتركانى الذى كان يتسم بضخامة بنيته والذى يربو وزنه على مائة وعشرين كيلو جراماً، كان مالكا لأراضٍ شاسعة فى الدلتا. هذا إلى جانب عدة عمارات فى القاهرة ومما لا شك فيه أنه كان لا يزال يقرض المال بشكل شبه منتظم. وأصبح أحد الوجهاء الأكثر أهمية داخل الرابطة اليونانية الكاثوليكية فى مصر وكانت وفاته المأساوية فى مصر سنة ١٩٣٥ فى مسكنه، حيث كان يقضى جزءاً من فصل الشتاء وظلت أسرار هذه الوفاة غامضة حتى الآن. إن الطريقة المهجية التى ذُبح بها ثم بقر بها بطنه توضح أن ما حدث كان تصفية لحسابات قديمة. لقد أثر أولاده البالغ عددهم أحد عشر فرداً أن يبيعوا كل شيء ويتقاسموا الأموال.

عند نزولى من البيت، قابلت جاراً فى الدور الثالث فنظر إلى شزراً وقال:

- هل تبحث عن أحد؟

- السيد باتركانى.

فتمتم قائلاً:

- إنه لا يكون هنا مطلقاً صباحاً، ولكنه يصل عادة في الثالثة ظهراً.

ومن خلف الباب كان كلب الرجل ينبح ثائراً، وقلت لنفسى:

- لا يمكن أن يكون هنا في الصباح... وأنا الذى كنت أحاول التحدث إليه دائماً قبل الثانية عشرة ظهراً. الآن فقط قد عرفت السبب.

فمنذ الساعة الخامسة إلا الربع، كنت أقف على باب العمارة وبعد عشرين دقيقة ظهر بازيل عند زاوية الشارع واضعاً يديه فى جيوبه ثم توقف أمام معرض الفواكه والخضروات المرصوفة ليتحدث مع البائعة. وعلى بعد بضعة أمتار توقف ثانية ليتحدث أيضاً مع أحد المارة، فأتجهت إليه وكأنتى لم أره فبدأ مبتسماً وقال دون أن تبدو عليه الدهشة:

- كنت سأكتب إليك بالفعل لأشكرك. كيف حالك؟

فى هذه المرة كنت قد أعددت إجابتى فقلت:

- أشياء عديدة... مشاريع...

فنظر إلى بفضول وقال:

- ينبغى أن تحكى لى ذلك، فلننتاول الغداء معا ولكنى سأغيب

عن باريس لمدة أسبوعين فليكن يوم الاثنين ٥ يناير إذا أردت.

وافقت على هذا الميعاد، إلا أنني قد انتابتنى حالة من القلق
غير المبرر لأننى شعرت أنني أقذف بنفسى فى فم الذئب، ولكن وقت
التراجع قد فات.

(٦)

بين الكريسماس ورأس السنة كنت أعانى من حكة دائمة فى الظهر. وكان طبيب الأمراض الجلدية الذى أوصونى بالذهاب إليه لأستشيرته فى إجازة، فوجدت فى الدليل عنوان طبيب آخر باسم كلود بوشون يقيم بالقرب من السربون، حيث حددت لى السكرتيرة ميعادا لليوم التالى. وذهبت فى الوقت المحدد حيث أكدت لى الشابة ذات البلوزة البيضاء والجالسة خلف المكتب:

- إن الدكتور لن يتأخر.

وبعد عشر دقائق فتح باب، وظهرت امرأة فى الأربعين من عمرها وأشارت لى بالدخول فأدركت خطئى؛ وذلك لأن كلود بوشون لم تكن تنتمى لجنس الرجال ولكن لم يفصح اسمها عن ذلك.

سألتنى وهى تحقق النظر إلى:

- ماذا ألم بك؟

فشرحت لها مشكلتى البسيطة التى يبدو أنها لم تعرها اهتمامًا، فردت قائلة:

- سارى ذلك بنفسى، هل يمكنك خلع الجاكيٲ والقميص؟

ففعلت ذلك ولكن فى شىء من العصبية، فقالت:

- هلا تفضلت على هذا المقعد؟

وقفت الطيبية خلفى لتكشف على ظهرى، فكانت الحكمة ما زالت موجودة تحت عظمة الكتف الأيسر فقالت:

- هنا؟

فأجبت:

- نحو اليمين قليلا

فوضعت إصبعها على الجزء المصاب للحظات بدت لى دهرًا كاملاً، ودون أى تعليق ذهبت لتغسل يدها فى الجانب الآخر من الحجره وقالت وهى تعود لتجلس على مكتبها:

- الأمر بسيط، لا شىء يدعو للقلق، ما اسمك؟

فاضطررت أن أتهجى اسمى وفى إجابة لسؤال آخر، أوضحت لها أننى أتيت من مصر فلمعت عيناها وقالت:

- ألم تصادف شخصاً يدعى بازيل باتركانى؟

فارتسمت الدهشة على وجهى بوضوح وقلت:

- إنه فى مقام ابن عمى - تربطنى وإياه قرابة بعيدة - أى أكاد أعرفه.

فتمتت وهى تخط الروشة فى سرعة:

- إنه شخص غريب، عليك أن تدهن هذا المرهم مرتين يوميا صباحا ومساء، ونظرت فى المفكرة وقالت:

- أراك ثانية يوم الجمعة... أو من الأفضل يوم السبت، نعم السبت فى تمام الساعة السابعة مساء، هل هذا يناسبك؟

عندما تركت عيادة الطبيب، لم أعد أشعر بالحكة ولكن ثلاث كلمات كانت تدور فى رأسى: "إنه رجل غريب".

فى هذه المرة كان مصباح مكتب السكرتيرة مطفأ؛ وذلك لأنها قطعاً كانت قد انصرفت. وكانت كلود بوشون ترتب ملفاً فى صالة المدخل وقالت لى وهى تشير إلى باب مفتوح:

- مساء الخير، تفضل من هنا، سيكون ذلك أفضل فى ساعة كهذى.

فتقدمتها إلى صالون حديث ذى إضاءة غير مباشرة وهنا شعرت أن هذا الموعد لم يكن مناسباً، وسألتنى بنبرة تلقائية:

- كيف حال الحكة الآن؟

- لقد وضعت المرهم وفى الحقيقة إننى لا أشعر بحكة الآن.

فبدت ابتسامة عابرة على وجهها. ولم تكن كلود بوشون تفتقر إلى مفاتن المرأة، وكان الطلاء الأحمر الداكن على أظافرهما لا يتوافق مع بساطة مظهرها وقالت:

- أرني ذلك.

وأخذت أخلع ملابسى ولكن هذه المرة كان ضيقى يفوق ذلك الضيق الذى ألمّ بى فى المرة الأولى؛ ربما لأننا كنا فى هذا الصالون أو لأنها كانت ترقبى وأنا أفك أزرار القميص...

كنت واقفا عارى القامة وتخيلت أن هذه المرأة خلفى وقريبة جدا منى.

وسمعت أنفاسها تتسارع قليلا. فماذا سنفعل مساءً فى أحد أيام السبت ونحن على بعد بضعة أمتار من حجرة كشف مظلمة؟ وقد أحاط بى عطر نفاذ، فأغمضت عيني نصف إغماضة متخيلاً ما سيحدث بعد ذلك فقد تلاشى حرجى، وكنت أنتظر يدها لتلامس كتفى ثم تتهادى فى رقّة إلى صدرى. فمن المؤكد أنها لم تكن ترتدى شيئاً تحت قميصها هذا، وكنت سأتركها فى الصباح الباكر وعلى ظهرى آثار خدش...

قالت لى:

- ارتدّ ملابسك، إن هذه الحكة سببها الحالة النفسية وستزول دون عقار.

فعدت إلى أرض الواقع، بينما ذهبت هى لترد على الهاتف فى الجانب الآخر من الغرفة.

ورفضت كلود بوشون أن تأخذ قيمة هذا الكشف الثانى الذى فى واقع الأمر لم يستغرق سوى بضع دقائق، وقررت ألا أتركها دون أن أسألها عما كنت أتوق لمعرفة: فقلت:

- لقد أخبرتيني فى المرة السابقة أنك كنت تعرفين بازيل باتركانى.

فترددت للحظة وقالت:

- إننى لا أعرفه شخصياً، ولكنى سمعت عنه من صديقة كانت قد تعاملت معه، فسألتها:

- هل يمكن أن أقابل هذه الصديقة؟

فبدت مرتبكة وربما نادمة على الكلمات التى تفوهت بها فى المرة السابقة.

فقلت لها بإصرار:

- إننى حقاً بحاجة إلى أن أعرف الكثير عن ابن العم البعيد.

فقال بصوت حالم:

- فى الواقع قد يكون ذلك أفضل.

فذهبت عند التليفون وأدارت قرص الهاتف وقالت:

- آلو، جونيفاف، أنا كلود ... إننى الآن مع مريض مصرى قريب لبازيل باتركانى من بعيد... ويرغب فى مقابلتك... نعم... لا

فى الحقيقة لا أعرّف عنه شئنا... نعم بالتأكد يوم الاثنين فى الساعة الرابعة بعد الظهر.

ونظرت إلى متسائلة، فأومت برأسى موافقا.

وبعدما وضعت سماعة التليفون، سجلت اسما وعنوانا على ورقة صغيرة وقالت:

- إن صديقتى تمتلك مقهى فى هذا العنوان فى الحى السابع عشر وبهذا ستنتظرك هناك يوم الاثنين بعد الظهر.

تركت طبية الأمراض الجلدية راضيا نوعا ما، وإذا بالحكة تعاود ظهورها.

(٧)

كانت جونفياف أش وكلود بوشون تبدوان وكأنهما نتاج قالب واحد، في سن واحدة ويتمتعان بمظهر وملبس واحد، كما أن طرق التعبير لديهما متشابهة تمامًا. مما لا شك فيه أنهما كانتا زميلتي دراسة ولكن جونفياف مالكة المقهى كانت تدخن بشراهة فهي قطعًا لم تكن تراعى صحتها مثلما كانت تفعل كلود بوشون طبيبة الأمراض الجلدية. ولكي تحدثني بمثل هذه الحرية، فلا بد أنها قد اتصلت خلال الأسبوع الماضي بصديقتها التي طمأنتها أنني أجهل كل شيء.

وبعدما رفضت تناول قطعة جاتوه والإكلير بالشيكولاتة، قدمت لي قدحا من الشاي السيلاني وهي تسألني:

- أنت إذن ابن عم لبازيل باتركاني؟

منذ عدة سنوات، كانت جونفياف تجمع الأثاث القديم لكنها كانت تبحث عن منضدة بقاءم واحد (من طراز لويس الخامس عشر)، وهو طراز نادر، لتتماشى مع كمودينو من الطراز نفسه، وكانت قد علمت الحضور، في أحد لقاءات العشاء، عما تبحث عنه، فأخبرها أحد المدعوين قائلاً: "أعتقد أنني أستطيع أن أحضره لك".

واستطردت قائلة:

- كان المدعو رجلا أسمر يجلس أمامي وفي حقيقة الأمر فمه يشبه فمك بعض الشيء أليس كذلك؟ ولقد بدأ حديثه وهو فخور بنفسه، لكنني معتادة على هذا النوع من البشر، وبعد العشاء سألني أين يمكن أن يقابلني فأعطيته هاتف العمل على مفضل وتعمدت أن أغير أحد الأرقام. وعلى الرغم من ذلك، نجح بازيل باتركاني في الاتصال بي بعد ثلاثة أسابيع موضحا أنه قد وجد الطاولة لدى أحد بائعي الأنتيكات في فرساي وقال: "ها هي المنضدة أمامي فأين يجب أن أحضرها لك؟" فظننته يمزح أو أنه أسلوب غير لائق ليحصل به على عنواني الخاص ومن ثم أعدد له موعدًا. ولكن وصفه للمنضدة جعلني أشعر بالدوار، ففي هذا المساء وصلت الطاولة إلى صالونى، وبدأ لى الثمن الذى طلبه صاحب الأنتيكات مناسبًا تمامًا - حيث إن ابن عمك لم يتدخل فى الأمر - وتظاهرت بالتفاوض للحصول على بعض التخفيض ولكننى كنت سأدفع أى ثمن للفوز بهذه القطعة من الأثاث... وأكملت حوارها وهى تصب الشاي فى الفجان قائلة:

- ألا تريد حقًا قطعة جاتوه؟

واستطردت قائلة:

- وبعد ستة أشهر، بعث لى خادما لم أستطع تشغيله، لكننى وجدت له مكانا عند أخى الذى يمتلك مطعمًا كبيرًا بالقرب من منطقة

بورت مايو. وفي العام التالي طلبني السيد بازيل ليعرض على كتابة
بارجير طراز لويس الخامس عشر من نفس خشب المنضدة السابقة،
فاتصلت ببائع الأنتيكات في منطقة الأورليون لأستفسر منه عن بعض
التفاصيل ثم ركبت السيارة وذهبت على الفور لأشتريها.

فبادرت بسؤالها قائلاً:

- هل تعتقدين أنهم أخذوا منك عمولة النقل؟

- من يتحدث عن عمولة؟ إن الأمر أكبر من ذلك بكثير.

وبإشارة منها طلبت منى ماء ساخنا لوضعه في براد الشاي

قبلما تكمل حديثها قائلة:

- لقد نجح بازيل في تشغيل ثلاثة موظفين آخرين في مطعم

أخى وذلك من خلال الخادم.

وبعد ذلك قمت بالاتصال به لأطلب منه تصريحاً لتوسيع هذا

المقهى وبالفعل استلمت التصريح في وقت قياسي.

فقلت لها:

- إننى لا أرى سبباً واضحاً يدعو للقلق في مثل هذا التبادل

للخدمات.

فردت قائلة:

- وأنا أيضا لا أرى سببا يدعو للقلق بشأن هذا الأمر...

ثم تساءلت جونيفاف وفي صوتها نبرة من ضيق:

- ولكن ما الذى يفعله ذلك المصرى عند بائعى التحف وهو

لا يفهم شيئا عن التحف أو عن مصر القديمة؟ ثم لماذا يهتم بالنذل؟

ثم أكملت قائلة:

- لقد ذهب لتناول الغداء فى أحد الأيام فى مطعم بورت مايو،

فاستقبلوه استقبال الملوك وكان النذل يحيطونه بكل رعاية، حتى إن أخى قد شعر أنه فى حضرة المالك الحقيقى للمطعم.

ثم بدت وكأنها مترددة بعض الشيء، فهل بالغت فيما تقص

عنه؟ فهو فى جميع الأحوال يعد قريبا لى، ولكن القلق الذى كان يبدو على جعلها تظمنن. وعساها كانت تقول ما قالت لتحذرنى منه.

واستطردت قائلة:

- لقد جعلنى أشعر أنه يتعامل مع الناس كعرائس الماريونات

وكانه يحرك الشخصيات وهو مختبئ وراء ستار، وربما أكون أنا أيضا إحدى هذه العرائس؟ ولو كان بازيل قد تقاضى عمولة عن الكمودينو، فلم تكن لنصل إلى هذا الوضع فى النهاية.

وفجأة، اعتذرت "جونيفاف أش" لضرورة إنهاء هذه المقابلة

لأن هناك موردا فى انتظارها.

(٨)

كان لبازيل باتركانى عاداته الخاصة فى مطعم "سان جرمان دى بريه"، فما إن نطقت باسمه حتى أرشدنى النادل إلى منضدة فى مكان قصى من الصالة قائلاً:

- إنه سيتأخر قليلاً فهلاً أحضرت لك كأساً فاتحاً للشهية؟. فى هذه الصالة المظلمة التى لا ينيها سوى عدد من المصابيح الصغيرة، كان الزبائن يتهايمسون.

ولكى أعطى لنفسى قدراً من الأهمية، قرأت قائمة الطعام للمرة الثالثة. وعندما ظهر بازيل أخيراً، كان يبدو فى حالة من اللامبالاة والارتياح. وما إن ظهر حتى أسرع نادلان لاستقباله وخرجت زوجة صاحب المطعم ذات الشعر الأشقر البلاتينى والصدر الممتلئ لتقبله.

وما كان من بازيل إلا أن اقترب من المنضدة ليربت على كتف أحد المدعويين مردداً بعض الكلمات التى أثارت ضحك الجميع. وفى هذه الأثناء، قام رجل كبير أصلع الرأس وهمس لبازيل فى أذنه قبل أن يتجه نحوى ليسلم على ويجلس أمام الويسكى المتلج الذى كان ينتظره قائلاً لى:

- آسف على هذا التأخير، كان على تسوية مسألة ما.

ودون مقدمات بادرني بالسؤال: أتحب السمك؟ شيء عظيم.
سنترك إذا صاحب المطعم يعد لنا طعام الغداء.

لقد بدل وصول بازيل باتركاني الروح العامة فى المطعم،
حيث بدا كل من النذل والذبائن أكثر سعادة وارتياحا؛ فما إن وصل
حتى دبت الحياة فى هذا المكان الذى يفتقد إلى البساطة.

وسألنى بازيل وهو يربّت على كتفى

- أين وصلت فى العلوم الاقتصادية؟

فتحدثت عن اهتمامى بعلم النفس الاقتصادى الذى أعده
جبريال تارد دون أن أكون متأكدا إذا ما كان هذا الاسم يعنى له شيئا
أم لا.

فرد قائلا:

- أنا أعرف عدداً من الأشخاص بهذا الاسم وكان وجوههم
كانت تظهر أمامه.

وقد اكتشفت فيما بعد، أنه على علم بأسماء العلماء مثل دور
كايم وسوفى وبيرو وماركس وكذلك كينيس وجالبريت، على الرغم
من أنه لم يفتح مطلقاً أى كتاب فى علم الاجتماع أو الاقتصاد.

وهنا قدموا لنا جمبرى كبير الحجم كما أذاقنا مدير المطعم كأسا من مشروب يسمى "بوييه فويسيه"، أحضره من قبوه الخاص، مما أثار البهجة حولنا، وهنا استطعت أن أسأل بازيل عن المهنة التي كان يزاولها فأجاب قائلا:

- إننى أعمل لدى كاتب شرعى.

فظننت أنه يسخر منى، وبادرته بالسؤال:

- فماذا تعمل إذا سيادتك... وماذا تفعل فى شارع ريمون

لوسوران؟

فأجاب قائلا:

- هذا شيء آخر إنه عمل خاص بى. قل لى ما رأيك فى هذا

الجمبرى؟ إنه فاخر أليس كذلك؟

ولتأكيد ما يقول رفع إبهامه لأعلى تجاه صاحب المطعم الذى

حضر مسرعا وقال:

- لقد قلت لك يا سيد باتركانى إن الجمبرى عندى لذى جدا!

ولك عندى مفاجأة فيما بعد... وبالمناسبة إننى أريد أن أحدثك بشأن

ذلك الشاب الذى يقدم النبيذ هناك للسيد لورو. هل تتصور أنه قد تم

استدعاؤه لأداء الخدمة العسكرية، إنها حقا لكارثة ليس للمطعم،

فيمكن استبداله ولكن الكارثة لزوجته وأطفاله، نعم لديه ثلاثة أطفال،

هل تتخيل ذلك! ولأن هذا الأبله ليس متزوجا فهو لا يستطيع الادعاء بأنه مسئول عن أسرة، والمسئولون فى الجيش لا يريدون أن يتفهموا الأمر، وربما تستطيع أن تخدمه؟

فرد بازيل قائلاً:

- إننى لا أعرف الآن ولكن سوف نرى.

لقد كان هذا النوع من السمك المشوى الذى قدمه لنا صاحب المطعم لذيذا للغاية وبعد قليل قام مساعد مقدم الخمر بملء كئوسنا ويده ترتعش، فحدثه بازيل وكأنه يبوح له بسر قائلاً:

- إننى أفضل "موسكاديه أو بوييه" الذى قدمته لنا منذ قليل ولكن لا تخبر صاحب المطعم فقد يغضبه ذلك.

فابتسم المساعد وقال بازيل:

- آه بالمناسبة لقد أعطانى صاحب المطعم فكرة عن موضوع الخدمة العسكرية، لا بد لنا أن نتحدث ولكنى لا أعددك بشيء... هل تستطيع أن تقابلنى غدا فى الساعة مساءً؟

و بالفعل كتب الموظف العنوان وشكر بازيل ابن عمى قبل أن ينصرف، فانطلقت قائلاً:

- لقد قدم لى السيد لوساج قلما حبراً هدية، فقطب بازيل حاجبيه قليلاً ثم قال:

- يا لها من فكرة!

- لقد كان يريد أن يشكرنى...

- كان يكفيه أن يشكرك.

فأفحمنى هذا الرد ولم أجد شيئاً أقوله.

ثم أشار بيديه لإحضار الحلوى:

- أنت تقرأ إذن لجبريال تارد؟ ولكن لماذا تارد على وجه

الخصوص؟

إذا كان البعض يتكلمون وهم معجبون بما يقولون فأما هو -

لا أدرى كيف أعبر عن ذلك - تحب أن تتصت إليه فهو يتحدث بكل جوارحه ولكن دون أن يرفع صوته.

فى الحقيقة، لم تخدمنى هيئة بازيل التى توحى باللامبالاة لفترة طويلة، فلقد كان شديد الانتباه حيث إننى سمعته مرتين أو ثلاث يعلق على إحدى مقولاتى ويوجهها إلى مسارات غير متوقعة. ألم أكن قد ذكرت ضمن حديثى أطروحة جبريال تارد حول التقليد الاجتماعى؟ فقد سألتنى إذا ما كان هذا الكاتب قد تأثر هو نفسه بنموذج شخص آخر أم لا؟ وهذا ما كنت أجهله، أو إذا ما كان أتى بجديد فى حياته اليومية؟ وهذا سؤال لم يكن قد تبادر قط إلى ذهنى.

وحتى نهاية الغداء لم يتكلم سوى عنى وعن دراستى

ومشاريعى.

كانت بعض الصور التي تتوالى على ذاكرتى ترجع إلى مطلع الخمسينيات. فى هذه الصور كانت تظهر مجموعة من الشباب- هم أنفسهم على الدوام- فى أماكن مختلفة عند الأهرامات وأمام سينما روكسى وعلى شاطئ الإسكندرية؛ حيث كانت أنظار جميع هؤلاء الشباب المبتسمين تتجه نحو بازيل باتركانى... فهل يمكن لهذا الشخص الذى كان محط أنظار الجميع فى الصور آنفاً، فى ذلك الوقت أن يصبح رجلاً "مرموقاً"؟

لقد قال لى صديق والذى إميل الفارس عندما كان يصاحبنى إلى المصعد، إن هذا الرجل سينتهى به الحال إلى سوء المآل مثل كل الأشخاص الذين هم على شاكلته، لأن العدالة توجد أيضاً فى هذه الحياة الدنيا!

و بينما كنت ما أزال تحت تأثير الصوت الدافئ والعطوف لب ب، كنت أحاول الذهاب لمقابلة ذلك السيد اللبناى لأخبره أنه أخطأ فى حكمه على بازيل.

فرجل كهذا لا يمكن أن يكون مجرماً بالطبع، ولكنه كان سيسخر منى إذا قلت له ذلك ويقول: "حسناً.. أيعمل ابن عمك كاتباً شرعياً؟ إنه لا يبدو عليه ذلك. وهل استطعت أن تستوضح نشاطاته الجانبية وكذلك الطريقة التي يقيم بها ما قدمه من خدمات؟"

ويبدو أن إميل الفارس كان يعتبر بازيل شريراً أكثر من كونه لصاً، وإننى لأتذكر كلماته جيداً وهو يقول:

- إن بازيل باتركانى تسيطر عليه نشوة السلطة، فلن أنسى أبداً ابتسامته الرضا عندما علم أنه سيمكّننى من الحصول على التصريح المطلوب! كما لو كان فى احتياج دائم لأن يقلل من قيمة الآخرين ويسيطر عليهم، فهو يبدأ بتضليل المدنيين له بفضل عن طريق هذا المكتب المنفر الذى لا يتطلب دخوله إلا أن تدفع بابيه. ولكن الأدهى من ذلك يأتى فيما بعد، عندما تكتشف أن الإجراء القانونى المطلوب يقدم مجاناً، ويمكنك أن تأخذنى مثلاً على ذلك فلقد أسدى إلى بازيل خدمة جليظة دون مقابل أو تفسير، كان يقول: "إنها خدمة ليس أكثر" على الرغم من أنها تكلف الكثير. وكانت هذه المقولة تضابقتى أشد ما يكون الضيق بل كانت تثير فى نفسى كل حيرة. لقد كنت أجهل متى ينبغى لى أن أدفع الثمن؟ وكيف يكون ذلك؟ ولا شيء يؤكد أنه لن يستخدم هذا التصريح الإدارى الذى حصل عليه بطرق ملتوية ليمارس به ضغوطاً على فيما بعد. فهل سأستطيع يوماً أن أرفض له طلباً؟ وهل سأعرف أى نوع من

الخدمات سيطلب. إن هذا النوع من الناس يجد سعادته في تَوريط غيره من الشرفاء.

ولا أعرف لماذا ذكرتى كلمات إميل الفارس بمظلوم بيه: تلك الشخصية المقيمة التي كانت تأتي من الأفعال والحركات ما يلهي الصغار ويثير حديث الكبار في مصر.

لقد كان مظلوم بيه يقوم بتوظيف العاملين المساعدين في المحاكم المختلطة وهي وظيفة بالغة الأهمية نظرا لمكانة هذه المؤسسة، حيث تحسم الصراعات بين أفراد أو شركات من مختلف الجنسيات. فلم يكن هناك مجال للبقيش، وفي واقع الأمر لم يكن مظلوم بيه الذي يتمتع بثروة خاصة يبحث عن ذلك. إذ كانت السلطة هي الشيء الوحيد الذي يشغل هذا الرجل البغيض والبالغ من العمر ستين عامًا وكانت تنهال عليه طلبات لشغل وظيفة سكرتير أو حاجب أو كاتب محكمة.

وبعد فترة من الانتظار الطويل يظهر المسئول عن التعيين الذي يرى المتقدم للمرة الأولى فيستقبله على عجل دون أن يسمح له بالدخول قائلاً بصوت فظ:

- ماذا تريد أيضاً؟

وكان مظلوم بيه يقبل طلب الالتماس وهو يتنهد مغتاضاً، كما كان يرفع عينيه إلى السماء متعجباً كيف يجرءون على إزعاجه لهذا

السبب وكان يصرح أنه في جميع الأحوال لا تقوم المحاكم المختلطة بالتعيين إلا في أضيق الحدود، ويترك المتقدم في حيرة بالغة قائلاً:

- مر على الأسبوع القادم.

بل إن مظلوم بيه كان يقوم باستدعاء المتقدم عدة مرات ليسأله عن معلومات إضافية عن دراسته وكذلك عن قدرته اللغوية. على الرغم من أن العناصر التي ترسل إليه كانت ممتازة، من خريجي الليسيه فرانسيه أو من أفضل المدارس في القاهرة والإسكندرية. وبعد عدة جلسات من الاستجواب كان مظلوم بيه يتلذذ بإعطاء إجابات تفيد الرفض فيقول: في الحقيقة لا، لم يكن ينبغي لك أن تأتي لتتوسل إليّ، ما الفائدة من ذلك؟ لقد أضعت وقتك فمن يعلم ربما كانت هناك وظيفة شاغرة في بنك أو شركة تأمين قد فاتتكَ في هذه الأثناء؟ وإذا كانت النتيجة لصالح المتقدم يبقى الشك ملازمًا له حتى النهاية عندما يقوم الرجل الطيب غاضبًا ونادمًا ليخبر المتقدم أنه سيدخل امتحان القبول. فقد كان مظلوم بيه يلقي الخبر السار كما تلقى قطعة من لحم إلى كلب لاهث، ذلك قبل أن يؤكد متتهدا أن هذا الأمر كلفه الكثير من الوقت والجهد وتسبب له في الكثير من المضايقات. كان شريرًا لأبعد حد، حتى إنه قد يصل به الأمر في بعض الأحيان إلى إلغاء قرار بالموافقة بعد عدة أيام من صدوره، ذلك عن طريق خطاب معسول يحمل قارئه على إلقاء نفسه في النيل، حيث يكون نصه: "لقد كنت ملائمًا تمامًا للوظيفة وأوشكت الحصول عليها حتى إنني قد

كتبت اسمك في السجل، ولكن هناك سببًا ثانويًا للغاية" أو أنه يكتب لمؤسسات أخرى توصيات ملتوية على النحو التالي: "أرجو أن تأخذ في الاعتبار ترشيح السيد فلان صاحب الملف المتكامل، أو السيد علان الذى تنقصه - دون شك - المؤهلات الضرورية لهذه الوظيفة المطلوبة، ولكن يبدو لى أنه يستطيع اكتساب العديد من المهارات التى تنقصه".

عندما حصل بازيل على ليسانس الحقوق (١٩٤٧-١٩٤٨)، كانت المحاكم المختلطة على وشك الاختفاء. ولكن ظل البعض يتملق مظلوم بيه لما يتمتع به من علاقات شتى وكان يتناول فى يده قائمة تضم أسماء كل من كان مدينا له بوظيفته" على حد قوله. ولكن هؤلاء كانوا يفضلون الموت ألف مرة على أن يتذلوا له مرة أخرى.

ترى هل كانت هناك صلة ما تربط بين بازيل ومظلوم بيه؟ لقد كنت ممزقا بين الرغبة فى معرفة ذلك من ناحية والحذر الذى كان يدفعنى إلى الابتعاد عنه من ناحية أخرى. ولكن سرعان ما قرر بازيل مصيرى.

باريس ٢ من مارس ١٩٦٤

ابن العم العزيز

أود أن أطلب منك خدمة بسيطة، فهل يمكنك الاتصال بى
أو المرور على فى شارع ريمون لوسوران؟ وشكرا مقدما.

بازيل ب.

لم أعد أفهم شيئا، لماذا كان إميل الفارس رجل الأعمال
اللبنانى الذى كان مدينا لابن عمى بخدمة فى غاية الأهمية، لا يعرف
شيئا عن أخباره منذ أربع سنوات بينما طلبنى فى خدمة للمرة الثانية
خلال بضعة شهور قليلة؟

وبعد ظهيرة هذا اليوم ذهبت ودققت الجرس ودخلت.

وفى صالة الانتظار كانت هناك شابة فى الثلاثين من عمرها
وهى ذات شعر فاتح وكانت متكئة على المدفأة وبين شفيتها سيجارة
وقالت لى "صباح الخير" وبلهجة واثقة رحبت بى كما لو كانت
تستقبلنى فى بيتها وقالت:

هل أنت ابن عم بازيل؟

ترددت للحظة ثم أجبت: - نعم.

فقالت لى ساخرة:

ألست متأكدا؟ أم ماذا؟

فشعرت بإهانة ونظرت إليها نظرة غاضبة، لكنها لم تلبث أن

مدت إلى يدها لتسلم على وتعرفنى بنفسها:

- أنا لورانس موبرجيه.

للوهلة الأولى لم أكن لأقول إنها جميلة ولكن ما يلفت الانتباه

فى الحال هو شخصيتها وحضورها وأيضا رائحة عطرها الذكية

المختلط برائحة دخان الحجر.

ولضيق الوقت لم يطل حديثنا، فقد ظهر بازيل عند الباب حيث

كان يوصل زائرا وقال لى:

- أشكرك على حضورك. أتعارفتما؟ هذا جيد جدًا، تفضل

بالدخول بينما ستنتظر لورانس قليلا.

وفى الداخل أخذ بازيل يسألنى عن أخبارى وعن دراستى

وأراد أن يعرف إذا ما كنت قد زرت متحف اللوفر وقصر فرساي أم

لا. ثم فتح درج مكتبه ليعطينى صورة قديمة لجبريال تارد وهو فى

زيه الرسمي، حيث ترجع إلى عام ١٩٨٠ والله يعلم أين عثر على هذه الصورة التي تأثرت بها تأثراً بالغاً.

وبعد ذلك انتقل بازيل إلى الموضوع الذي طلبني من أجله قائلاً:

- الاثنين القادم، سينظم نادى الروتارى الموجود فى مدينة مون غداءً مصرياً، نعم مصرياً، فكما تعرف أن الفرنسيين أحياناً يحبون الأشياء الغربية... على العموم مون ليست ببعيدة عن باريس؛ فسيكون الذهاب والإياب فى اليوم نفسه.

فقلت له بصوت ساخر:

- ولكننى لا أجد فن الطبخ.

فقال:

- اطمئن فالأمر لا يتعلق بالطبخ أو تنظيف الصحون، إنهم يرغبون فى شخص يكلمهم عن مصر فى عهد ناصر... لا، لا هدى من روعك، فلن تقوم بإلقاء محاضرة ولكن المطلوب منك فقط أن ترد على أسئلة تتعلق بالحياة اليومية فى مصر. وأنا على يقين أنك ستحسن تدبير الأمور كما أن رئيس نادى الروتارى الذى أراه رجلاً ذكياً، قد عزم على ترجمة قائمة الطعام إلى الهيروغليفية وكذلك إلى العربية.

بالنسبة للهيروغليفية، أحضرت له عالم آثار. أما بالنسبة للعربية، فأعتقد أنك تستطيع أن تتولى هذا الأمر؟

فنظرت إليه نظرة ثاقبة وقلت له:

- بخصوص مصر وقبل أن أنسى، أريد أن أسألك هل كنت تعرف مظلوم بيه شخصياً؟

فبدأ الدهول على وجهه ثم أخذ يقهقه قائلاً:

- هذا الوغد العجوز؟ إننى لم أكن أعرفه فحسب، ولكنه مدين لى بلقب الباشاوية وهذا موضوع يحتاج إلى وقت طويل ولورانس تنتظر فى الخارج، فلنتحدث إذن مرة أخرى.

ثم استطرد قائلاً:

- ما قولك بشأن أعضاء نادى الروتارى فى مون؟

فابتسمت مدعناً.

- أشرك كنت أعلم أنه يمكننى الاعتماد عليك.

ثم أعطانى قائمة الطعام لأترجمها وكذلك قدم لى تذكرة ذهاب وإياب درجة أولى وسألنى:

- ماذا ستفعل فى أحد يوم القيامة المجيد؟ لا يوجد شيء معين، أليس كذلك؟ إذا ستتناول معى الغداء وفى هذه المرة سيكون

الطعام فرنسيا، والعنوان هو شارع جيه لوساك ويمكنك أيضا تدوين رقم التليفون.

ثم صاحبنى إلى باب المدخل ويده على كتفى فمعه تشعر فعلا بالصحة.

وفى المساء ذاته، قمت بكتابة قائمة الطعام باللغة العربية مستعينا بقاموس فرنسى - عربى للبحث عن معانى بعض الكلمات غير المتداولة مثل "سمبوسك الدجاج" و"بسكوت اللوز" والتي لم أكن أعرف معناها حتى باللغة الفرنسية.

ولدى وصولى إلى محطة مون، استقبلنى رجل خفيف الظل ذو لحية وكان يدخن البايب، وأركبنى سيارة DS ليصحبنى إلى مطعم فى وسط البلد. وصافحت أناسا كثيرين. وبعدها تناولت كأسا فى جو مليء بالصخب والدخان، أجلسونى على يسار الرئيس، وكان الوقت المتاح لى لا يسمح إلا بالرد على ثلاثة أسئلة أو أربعة عن وضع المدارس الفرنسية التى كانت موجودة سابقا فى مصر. ولكن اهتمام الحضور كان موجهاً بصفة خاصة إلى عالم الآثار المصرى الجالس على يمين الرئيس، حيث كان يتحدث باقتدار فى شيء من الأسى عن آثار النوبة التى تهددها السد العالى فى أسوان. ثم دارت مناقشة حادة حول عربة الإسعاف التى كان الروتارى يود أن يهديها إلى المستشفى المحلى.

وعند احتساء مشروب البوس كافيه، شكرني المدير شكرًا بالغًا
بدا لي زائدًا عن الحد ثم أهداني قلما (قلما آخر!) فقررت ألا أخبر
ابن عمي عنه.

على مسافة لا تبعد كثيرا عن حديقة لوكسمبورج وفي الطابق الثالث، كان بازيل يسكن في منزل صغير يتميز ببساطة أثاثه ويفتقر إلى اللوحات والتحف الصغيرة، إلا أنه في مكان واضح من المدخل كان يوجد برواز صغير يحتضن صورة، أخذت في الثلاثينيات لزوجين مبتسمين في سن الشباب، وكانا يظهران في إحدى الحلبات الأوروبية للترحلق على الجليد في فصل الشتاء؛ هما دون شك والدا بازيل.

كان بازيل يرتدى بلوفرا يدوى الصنع، ياقته على شكل V، سألتني عن مهمتي في نادي الروتاري في مون وشكرني على الخدمة التي قدمتها له.

فقلت على استحياء:

- عفوا، أنا لم أفعل شيئا

فأجاب وهو يشدد على كلمة مطلقا:

- الأمر ليس كذلك مطلقا.

وبينما كان بازيل يبحث في خزانة الأطباق عن كنوس لشراب فاتح للشهية، بادرت به بالسؤال الذي كان يؤرقني:

- ألا ينبغي أن تحدثني عن مظلوم بيه؟

فطفق يضحك وقال:

- مظلوم بيه؟ أنا أسميه مظلوم باشا.

ثم حكى لي الحيلة التي لجأ إليها هو وبعض أصدقائه للانتقام من الرئيس السابق لمكتب المحاكم المختلطة بسبب كل أعماله الوحشية:

- ففي صباح أحد أيام شهر يونية عام ١٩٤٨، تلقى مظلوم بيه خطابا رسميا من القصر يفيد أن الملك فاروق قد أنعم عليه بلقب باشا لاستحقاقاته العديدة. باشا! لقد كاد الرجل أن يطير من الفرحة، فلم يعد قادرا على احتمال الخبر وفي الساعات التالية تحدث إليه عبر الهاتف الأشخاص الذين لا يعرفهم والذين كانوا يدعون أنهم موظفون في القصر، ليهنئونه بحرارة على ترقيته. أنا نفسي تظاهرت بأنى أحد نواب مدير القسم الأوروبي وتحدثت إليه ملقبا إياه "بالباشا" فى وضوح... فلقد كان هذا القدر غارقا فى النعيم. أما الأشقياء من حجاب المحاكم، فكانوا يتلقون وابلا من الشتائم إذا ما ساءهم الحظ ولقبوه "بسعادة البيه". وفى اليوم التالى، لم يكن هناك أى إشارة واضحة لهذه الترقية فى الجرائد مما أدهش قطعا السيد مظلوم الذى

قام بإبلاغ كل معارفه. فى هذه الأثناء قمنا نحن بنشر حقيقة هذه الأكدوبة مما أثار سخرية الجميع حتى إن جريدة "البروجريه إيجيسيان" كانت ستقوم بنشر أصداء هذا الخبر... وبعد مرور أربع سنوات، قام الضباط الأحرار بالاستيلاء على السلطة وإلغاء الألقاب القديمة ومظلوم الذى كان يعتقد أنه أصبح باشا فى أربع وعشرين ساعة لم يعد يحظى حتى بلقب بيه!

فسألته:

- وهل ما زال حيا حتى الآن؟

- لقد أمضى هذا الشخص حياته يعكر صفو حياة الآخرين وقيل لى إنه ما زال حيا يريض على ميراثه ويرفض أن يعطى أقل القليل لأبناء إخوته الذين يتسولون على بابه... لا بد أنك تشعر بالجوع الآن؟ سأذهب لأرى إذا ما كانت البطة قد نضجت أم لا. وبعد لحظات، عاد بازيل وفى يديه طبق يتصاعد منه الدخان وكانت لورانس تتبعه وهى تخلع مريلة المطبخ، وكانت رؤيتها مفاجأة غير سارة لى إذ إننى كنت أعتقد أننا سنكون وحدنا.

أخرجت لورانس السيارة من فمها وأطفأتها فى طفاية، فى هذه المرة وجدتها أكثر إثارة من المرة الأولى خاصة وأنها كانت ترتدى هذا البنطلون وهذه البلوزة ذات الصدر المفتوح. كنت أتخيلها وهى عارية بين ذراعى بازيل ببشرتها الناصعة البياض، وأردافها

الملفوفة، ونهديها المشدودين، وعطرها المختلط بدخان التبغ الأبيض... كم كنت أود أن أكون مكان ابن عمي، مهما كلفني ذلك من تضحيات!

لقد كنت أحس أنها تعشقه؛ فقد كانت تتصت لكلماته وتطيل النظر إليه. وكانت تتصرف كصاحبة للمكان، ولكنني فهمت من خلال تفاصيل دقيقة أنها لا تسكن هنا... على كل فإن وجود سيدة برجوازية ثرية كهذي في بيت يحوى هذا الأثاث المتواضع كان يثير الدهشة. ولقد قمت بشكرها على البطة بالبرتقال إلا أنها ردت قائلة:

- إن بازيل سوف ينقل الشكر لصاحب المطعم، إلا أنني أعترف أنني هذه المرة قد استطعت أن أشعل الفرن.

كانت تقول "هذه المرة" كما لو كان هناك العديد من المرات السابقة وفيما بعد، عرفت أن علاقتها ببب لم تنشأ إلا منذ بضعة أسابيع.

أما بازيل فقد أخبرنا أنه ذات يوم قُدمت بطة بالبرتقال خلال أمسية ثقافية بقصر الإليزيه، وحكى لنا في كثير من الهزل كيف قام الجنرال دي جول باستقبال الفنانين المختلفين. ومن الواضح أنه قد ألم بهذه التفاصيل من شاهد عيان.

لم أجد أى تشابه بين بب وبين خطباء طفولتنا، فقد كانت مداخلتهم مثيرة، تستولى على الحضور بصوتهم الراعد، أما هو فقد

كان يتكلم فى هذوء لا يبدو مؤثراً ولم يكن بحاجة إلى استعراض
أو "إيمان" لكى يستمعوا له.

كانت هناك قوة تتبعث من هذا الرجل فهو ذو نظرة عميقة
وساحرة غيرت من آرائى المسبقة وأحلام طفولتى. كم كان ابن عمى
يبدو مضحكاً ومثيراً للسخرية وبعيدا كل البعد عن هذا الذى يقود
الكاديلاك ويحيط به حشد من الخدم ويتعامل مع أفضل بيت للخياطة
فى باريس!

أشعلت لورانس السيجارة وهى تتناول الجبن وقالت وسط
نفثات الدخان:

- يا بازيل بخصوص بائعة الخبز الآتية من باسى... لقد
ندمت على إرسالها لك فى يناير.. ويبدو أنها قد جاءت لتستجديك
ثانية فى الأسبوع الماضى، أفلم يكفها؟ لماذا قبلت طلبها؟
فهز كتفيم قائلاً:

- لقد كانت بحاجة إلى المساعدة.

- وأنت ألم يكن لديك شيء لتطلبه منها؟

- ربما فى يوم ما...

لقد دخل بازيل فى حياتى، وكان ينتابنى شعور غامض بأنه لن يخرج منها أبداً. فهو شخص غريب بحق كما قالت طبيبة الأمراض الجلدية، ولكن لماذا غريب؟ فتساءلت بلكنة شبه مصرية: من أين وإلى أين؟ لقد كانت كلود بروشون دون شك متخصصة جيدة وذلك لأن حالة الأكلان قد تلاشت وفقاً لتوقعاتها، أما تحليلاتها النفسية فلم تثبت صحتها بعد، فقد يستحق بازيل نظرة أخرى. وهى على أى حال لا تعرفه شخصياً، فمنذ متى يمكن تشخيص حالة مريض دون مقابلته؟

ومما زادنى اضطراباً كلمات صاحبة صالون الشاي جونيفاف أيش، فلماذا كانت تشعر أنها تحت رحمة ابن عمى؟ ألم يكن الفساد الذى اكتشفته لدى بازيل أكثر خطراً من ذلك الفساد الغث والمضحك لدى شخص مثل مظلوم بيه؟ لقد شعرت تلقائياً أننى مرتبط بهذا الرجل الذى كانت جونيفاف قد وصفته بأنه محرك لعرائس الماريونات.

وفى شهر يونية، شعرت أننى مشتاق لبازيل، فاتصلت به فأبدى سرورا لمكالمتى ولدى لقائى به سألنى فجأة:

- هل تحب التمس؟

فأدى إليها المحترم دعوات إلى الدور قبل النهائي غدا بعد الظهر في رولان جاروس.

كان موعدنا أمام المدخل الرئيسي ولدى وصولي وجدته في حوار طويل مع أحد حراس الجراج والذي قام بإعطاء بازيل رقما - دون شك رقم قيد - سجله بازيل على ظهر التذكرة.

كانت مئات المتفرجين قد اتخذوا من الوسط مكانا لهم، أما نحن فقد كان لنا أماكن مميزة بالقرب من أرض الملعب الممهدة. وتحت شمس ساطعة تذوقت للمرة الأولى جمالا وكأننا في احتفال كنسي باريسى بهيج ومريح للنفس.

كان بازيل يعرف أناسا كثيرين، ومن بين أولئك الذين صافحوه تعرفت على مدير مجموعة صناعية وكاتب افتتاحية معتادا على الحوارات السياسية في التلفاز، كما عانق بازيل اثنتين من ممثلات السينما استطعت أن ألامس يديهما. وبعد ذلك، جلس كل منا في مكانه ليسمع قرع كور سانتانا في مواجهة فرنسيه ببيير دارمون. وكان الإسباني الفائز في رولان جاروس لمدة ثلاث سنوات - وكان يلعب باقتدار وحقق الفوز بسهولة في الربع الأول وكذلك في الثاني - مثيرا حماس المنصات. وفي الاستراحة، قام مغن مشهور بتحية بازيل وأشار إليه ليلحق به في اللوج. في الحقيقة، كنت مندهشا ومذهولا بل متأثرا كثيرا بعلاقات ابن عمي.

وبدأ الشوط الثاني من المباراة، وتناقصت قدرة سانتانا على الرد حيث بدأ يعاني من الحر الشديد. فانتصر عليه دارمون ست جولات متتالية، وفي خضم التصفيق الحاد اختفى بازيل وبحثت عنه بعيني فوجدته يتحاور مع عامل البار.

كانت النتيجة اثنين اثنين للطرفين! فقد استطاع الفرنسي أن يتعادل بجدارة مع منافسه الإسباني. وعاد بازيل إلى مكانه قبل الضربة الحاسمة التي بدأت في صمت مقدس وذهب الإسباني يلهب حماس الجمهور بنجاحه في توجيه الضربات في مشهد عابر، ضربة تلو الأخرى، ثم وجه ضربة ضعيفة وفقد دارمون كل وسائله وأضاع النصر من بين يديه بعد مائة وأربعين دقيقة.

وعندما بدأ المشاهدون في إخلاء المنصات، لحق موظف البار ببازيل وقضيا ما يقرب من ربع الساعة في محادثة تبدو مريبة.

وعند الخروج لم أستطع أن أخفي فضولي فبادرته سائلا:

- عما كنتما تتحدثان؟

فرد قائلا:

- كنا نتحدث عن المطر وعن الطقس الجميل.

فتعلمت من ذلك ألا أوجه له مطلقا أسئلة من هذا القبيل.

هذا وقد رأيت بازيل عدة مرات فى صيف ١٩٦٤، وقد
اختفت لورانس، ولذا فهو منذ ذلك الحين كان يخرج مع واحدة تدعى
سابين كانت سمراء بقدر ما كانت الأخرى شقراء، وسرعان ما
وقعت فى غرامها.

وعن سابين ليفانستين، فهى فتاة تخرجت من قسم التاريخ
الطبيعى وتعمل فى حديقة النباتات وهى شديدة الحساسية، حيث يحمر
وجهها لأقل انفعال. أما شعرها فقد كان أسود معقوصا من الخلف
ولها ساقان تثيران غيرة مارلين دى تريش، والله أعلم لماذا كنت
أشبهها بالخبيزة وشجرة المانجو والنعناع البرى.

لقد كان بازيل يصحبنى فى بعض الأحيان لتناول العشاء فى
خمارة مونبرنص، ودائما ما كانت سابين تصاحبنا، حيث كانت تأتى
مسرعة حاملة حقيبتها الصغيرة وشعرها يتطاير حتى إن بازيل كان
يسألها مازحا:

- أتهربين من أحد؟

كان بازيل يعرف كيف يتأنى فى كل الأحوال (الظروف) دون
أن يعطى إحياء بضياح الوقت. فقد كان يتجول فى باريس كما لو
كان فى نزهة تستوقفه أقل الأشياء ليُشاهد واجهات المحلات
أو ليتحدث لبرهة قصيرة مع أحد لا يعرفه. وفى الحانة وبينما نحن
نلتهم ما فى صحنونا، كان بازيل يتلذذ بكل لقمة وبكل رشفة كما لو
كان أمامه الدهر.

(١٣)

كان ب ب يحيرنى أكثر فأكثر، لدرجة أننى كنت أدون عندى فى كراسة ذات سلك، جملة وحركاته، بل وبعض المعلومات التى يدلى بها بعض الأشخاص الذين كانوا يعرفونه.

فإذا كان يعمل كل صباح لدى كاتب محام فى الضفة اليمنى من النهر، فما الهدف الحقيقى الذى يحمله على قضاء معظم فترات ما بعد الظهر فى شارع ريمون لوسوران؟ فلقد أبلغنى فى أول غداء تناولناه فى المطعم:

- إن هذا شيء آخر، شيء لى.

فى نفس اليوم، كنا قد تكلمنا عن السيد بيير لوساج الذى جئت لأحرس له شقته وسألت بازيل:

- هل هو عالم حقا؟

- نعم عالم طبيعة له قيمته فى مجاله، فهو قطب كما يقال.

- هل هو أحد أصدقائك؟

- ليس بالضبط، فمِنذ عدة سنوات تكرم بتشغيل مساعد مختبر
قمت بالتوصية عليه في معهد علم المحيطات وظلت علاقتنا مستمرة،
ورغم مزاجه المتقلب، فإنه عالم بحق. وفي كل مرة يسافر فيها، كان
يطلب مني إيجاد حارس لشقته، فلعل ذلك لم يضايقك؟

خدمة، خدمات... هكذا إذن كان بازيل يلجأ في كل مرة إلى
الأشخاص المدينين له. ألم أدخل أنا بنفسى ورغماً عنى فى هذا
المضمار؟ فقد ساعدنى لإيجاد مسكن ليطالبنى بالحاح فيما بعد ودون
أى مكافأة مالية، وحتى قلم الحبر الذى أهدها إلى السيد لوساج كان
إخلاقاً بنظام بازيل الذى لم أكن أدرك الهدف منه.

أما المرة الثانية، فقد كانت فى مباراة رولان جاروس بعد
وقت قليل من نصف المباراة عندما سألته بصراحة:

- كيف تتصرف يا بازيل لتلبي كل الطلبات التى ترقى منك؟

فدهش من سؤالى ورد قائلاً:

-أولاً أنا لا ألبى كل الطلبات، ولكننى فى الحقيقة أعرف عدداً
لا بأس به من الأشخاص الذين سبق لى تقديم خدمات لهم والذين
غالباً ما يجدون متعة فى مساعدتى متى أقصدهم فى عمل ما.

- تعنى أعطِ تُعط؟

- يا له من تعبير سخيف!

- كنت أقصد أن أقول إن هناك مقابلا

- ماذا ... إنه يحدثنى الآن عن المقابل! مقابل لمن؟ بل مقابل لأى شيء؟ أيها الاقتصادى الكبير، احترس لما تقول! فوقع الكلمات أقوى من وقع الأرقام.

وبعد قليل سألتنى:

- ولكن لماذا تطرح كل هذه الأسئلة؟ إن قوانين السوق لن تتضح لك من خلال إجاباتى.

فى الحقيقة، لم أكن أهتم بقوانين السوق! فتحت تأثير جابريل تارد وجهت كل اهتماماتى لعلم الاجتماع وعلى أى حال من الأحوال كان مسار بازيل هو المسار الذى يغربنى.

وذات مساء كنت قد لحقت ببازيل فى السينما، فإذ به يباغتنى غتنى قائلا:

- يبدو أنك قد تعرفت على جونفياف.

- جونفياف؟

- صاحبة صالون الشاى.

فذهلت وكنت كطفل ضبط متلبسا، فكيف عرف بازيل أننى قد قابلت السيدة التى تجمع الأثاث القديم؟

انطفأت الأنوار فلم أجب على الفور وبينما كانت تُعرض مقتطفات من الأفلام الحديثة لم أكف عن التساؤل؟ هل يمكن أن يكون على علم بزيارتي لجونفياف على الرغم من أنه لم يبعث أحدا ليبتعننى! إلا إذا اعتقدنا أن لديه جاسوسا كان يجوب المكان - ربما كان خادماً؟ إن كل الشواهد تقول إن صديقة الطبيبة هى التى قد أخبرته بذلك، ولكن لماذا؟

أعتقد أن جونفياف أش بعدما وصفت بازيل بأنه محرك للعرائس قد ترثرت قائلة:

- يوجد فى كل ذلك شيء غريب، فبازيل باتركانى ينتمى لهؤلاء الأفراد الذين لا يستطيعون أن يعملوا إلا فى الظلام كما لو كان النور يرعبهم.

أما هنا فى هذه الصالة المظلمة، كان لهذه الملحوظة وقع غريب؛ فقد عادت إلى ذاكرتى أحاديث أخرى وأخذت تتوالى وتختلط فيما بينها حتى أن الفيلم لم يعد على الشاشة بل كان فى رأسى.

وما إن بدأت الاستراحة حتى بادرت بالحوار دون أن أترك له فرصة ليعيد سؤاله مرة أخرى فقلت:

- فى الحقيقة إننى قد ذهبت لصالون الشاى.

- لقد تركت لديها انطبعا جيدا.

هكذا قال بازيل قبل أن ينادى بائعة الأيس كريم التي
اقتربت منا.

وإلى هنا توقف بنا الحوار، ليتناول هو الفانيليا وأنا
الشيكلاتة.

في نهاية المطاف، لم أستطع أن أعرف لماذا ترك ب ب مصر، فترى هل كان يعرف هو نفسه السبب؟ من الصعب أن يستطيع أحد التمييز بين ما كان يرفضه في مصر وبين ما يشده إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، فلم يكن رحيله عن مصر يمثل رحيلاً نهائياً في مخيلته ولم يكن هناك أي شيء ليمنعه من العودة إلى القاهرة إذا لم تكن فرنسا قد أعجبتة أو لفظته.

لقد رحل بازيل في ربيع عام ١٩٥٢، في وقت لم يكن أحد يفكر فيه في الهجرة. ولقد كنت أعرف ذلك لأنني سمعت أكثر من مرة في هليوبوليس أن هذا الرحيل قد أدهش كثيراً من الناس. فما الشيء الذي ذهب يبحث عنه ذلك الصبي وحده وهو في الثامنة عشرة من عمره في أوروبا في الوقت الذي كان كل شيء في بلاده بيتسم له؟، فقد كان يتمتع بلقب وكذلك بجزء من ثروة جده فرديناند بتركاني، وكان حاصلًا على ليسانس في الحقوق بالإضافة إلى جاذبية لا تقاوم، أي باختصار "شاب مناسب"، فهناك أكثر من فتاة كانت تذوب حباً فيه بدءاً من زينة دكاش المتعجرفة التي كان ظهورها بالمايوه في حمام سباحة نادي سبورتنج يحدث الهوائل، أفلم يكونوا

يقولون إنها عندما ينست من أن تجذب انتباهه قامت بابتلاع علبتين من المنوم ليلة عيد الميلاد؟

بل إن الأسطورة التي كان يتناقلها الناس تقول إنه عندما ذهب بازيل مع أصدقائه لزيارتها في المستشفى ومعه باقة ورد، فقدت زينة وعيها لدى رؤيتها له.

إن رحيل بازيل جعل الكثير من شباب هليوبوليس أيتامًا، حيث كانوا يعتبرون هذه الضاحية بمثابة حديقة غناء في صحراء القاهرة، فقد كانوا يتحدثون عنه كأنه كوكب متلألئ، ويشبهون وقته بعصر جميل لم أشهده لأننى كنت ما أزال صغيرًا.

وفى نهاية الخمسينيات وبينما كان الوضع يزداد توترًا فى مصر، كان الآخرون ينظرون إلى بازيل وكأنه رائد بل نبي. وكان رحيله المبكر مثار حسد فى ظل هذه الظروف الطيبة، وكانوا يمتدحون جسارته ونفوذ بصيرته.

لقد رحل بازيل عن مصر بعد عدة أسابيع من حريق القاهرة الشهير؛ وذلك دون شك لأنه أدرك أكثر من غيره انقضاء عهد وبداية عهد جديد. ولقد تحدث معى ذات مرة بصوت لم أعتده من قبل حيث كان يشوبه حنين إلى ذلك الوقت:

- لقد تبدل الزمن وذهبت معه كنوز ثمينة لا تقدر: يسمح هذا الطيش وهذه اللامبالاة لأشخاص مختلفين أن يعيشوا جنبًا إلى جنب،

نعم جنباً إلى جنب وليسوا معاً، أى يختلطوا ولكن لا يمتزجوا فلم يكن الناس يرون القاهرة على أنها قطعة من باريس ولن تكون هكذا يوماً ما، ولكن فضلاً عن هؤلاء الأوربيين، الذين نهبت أموالهم وحرقت في هذا السبت الأسود المشنوم، ألم يكن يستهدف هذا الحريق أناساً أمثالنا - من أقليات مسيحية - متمصرة كانت أو متغربة؟

ولكن بازيل فكر في الرحيل قبل هذه الأحداث، وكان الظن يراودنى من أن صبغة جده بتركاني كانت تلازمه وأن ظله يتقل كاهله. ألم يكن يريد أن يطير بأجنحته في سماء أكثر صفاءً وأكثر تحرراً؟ حيث إن البقاء بمفرده في باريس دون أن يعرفه أحد، كان يسمح له بخلق شيء جديد، فلن يحمل همّ نظرات الآخرين. وعلى حد قوله، لقد استولت عليه باريس منذ اليوم الأول، فقد كان يجوب كل أرجاء المدينة ولا يكف عن اكتشاف أحسانها، وقد كان يقول متلاعباً بالكلمات:

- لقد كان المترو ينقلني دائماً.

ففهّمته تماماً، وكانت هذه المجاديف تبرزغ في الظلام الحالك بانتظام مذهل وكانت تجسد في عيني كل ما كان ينقص الشرق، وفي نهاية الرصيف كان تقاب التذاكر جالساً على سجادة من التذاكر المتقوية وهو يتقبّ دون كلل أو ملل التذاكر ونظرة متجه إلى مكان آخر. كانت المركبات في هذا العصر مملوءة بالخشب والضحج ويفوح منها رائحة كريهة وغريبة تلك هي رائحة باريس. وعلى أى

حال كان يجب أن ندور في رحى هذه المدينة المتحاملة نسبياً على الأعراب. فقد أدركت عندما سمعت قصص بازيل، أن ما عاشه من التجارب يشبه كثيراً تلك التي عشتها أنا على الرغم مما طرأ على فرنسا من تغيير طفيف خلال هذا العقد من الزمان. إن المصري الذي كان يطلب "شاليموه" بدلاً من قشة على سطح مقهى أو "باتيه" في مخبز، كان من المحتمل جداً أن يتعرض لنظرات الدهشة واحتقار لا نهائي وقد حكى لنا بازيل قائلًا:

- لقد قمت بطلب ورق صحي من صيدلية، فردت على الصيدلانية بجفاء "ليس لدينا هذا المنتج".

وعندما كان بازيل يعود بذاكرته إلى الماضي، كان يسخر من ذلك لأنه عرف الآن أدق أسرار هذه الأرض التي تبنته.

كان انتعاش باريس يسكر بازيل، حتى إنه كان يشعر أنه في قلب العالم. فمن الناحية الطبيعية، كانت هذه النقطة الافتراضية في البحر المتوسط في مكان ما بين الجزر اليونانية والإسكندرية، ففي هذا المكان يصل الهواء المنعش إلى ذروته، ولكن عقلياً وحسيًا كان ملتقى العالم يوجد هنا بين الحى اللاتينى وقصر التويلرى.

لقد اندهش بازيل عندما وصفت سابين باريس بأنها مدينة مجهولة الهوية حتى إنه قال:

- في باريس دائماً ما يكون الناس حولنا فلا نشعر بالوحدة.

كان بازيل يستيقظ مبكراً، سعيد القلب، شغوفا بالمعرفة
واللقاءات، وكل يوم يمثل له وجوداً كاملاً، فقد كان يهيم على وجهه،
تحمله باريس بصخبها وعطرها وحماسها.

كنت أتساءل كيف يمكن لمهاجر أتى لفرنسا وحيدا دون سند، أن يصل لمثل هذا المركز في عشر سنوات؟ فكان بازيل يجيب قائلاً:
- لقد كنت محظوظاً.

وعلى الرغم من أن إجابته كانت تحوى شيئاً من الحقيقة إلا أنها كانت مختصرة بعض الشيء.

بعد مرور أقل من أسبوعين على وصوله إلى باريس وفي صباح يوم من أيام شهر أبريل ١٩٥٢، كان بازيل يتنزه تحت بواكى شارع ريفولى عندما ارتطمت قدمه بحقيبة صغيرة من الجلد الأسود وبداخلها مستندات وعلى ظهرها كارت ملصق عليه اسم صاحبها وعنوانه وهو: "١١ إدمون دورمينيو، ميدان فوندوم"، فتردد بـ ب للحظة ووجد أنه بدلاً من تسليمها للشرطة من الأسهل أن يذهب إلى هذا العنوان الموجود على بعد مائتى متر من هذا المكان.

وهناك فتح له الباب رجل يتصبب عرقاً كما لو كان على وشك أن يصاب بأزمة عصبية، وعندما لمح الحقيبة الوزارية، عانق ابن عمى صائحاً:

- إنك أنقذت حياتي! إنك أنقذت حياتي!

وأسرع إلى حجرة مجاورة وعاد بعد لحظات وهو يمسك بيده
نقودا ويقول:

- خذ، هذه لك.

فرفض بازيل بأدب ولكن الرجل الذي يبلغ من العمر ستين
عاماً كان يصر بقوة، وقال:

- إنك لا تتخيل ما تمثله تلك المستندات بالنسبة لي! فبدونها
كنت سأفقد ثروة!

ولكن بازيل كان مصمماً على ألا يأخذ شيئاً، فرد عليه الرجل
قائلاً:

- إذا أقسم لي أنك ستتصل بي إذا احتجت يوماً إلى شيء،
فربما أستطيع مساعدتك!

فاستأذن بازيل من السيد دورمينيو ووعده أنه سيذكر ذلك
الوعد.

وبعد ثلاثة شهور، لم يكن بازيل قد وجد عملاً فقد انغلقت
الأبواب أمامه واحداً تلو الآخر، حيث كانت جنسيته المصرية تمثل
عقبة كبيرة في طريقه. ففي مكاتب المحامين، كان هناك رجال
متكبرون وضحوا له بكل جفاء عدم احتياجهم لخبرة مثل خبرته.

وعندما تذكر اقتراح دورمينيو، ذهب إلى ميدان فوندوم فى صباح يوم الاثنين، لم يتعرف ذلك الرجل البالغ من العمر ستين عامًا عليه بسرعة ولكن بعد عدة ثوان صافحه بحرارة وصاح لزوجته قائلاً:

- تعالى يا هيلين! إنه الشاب الذى أنقذ حقيبة حصة الشريك فى رأس المال!

ولفرحته بأنه سيرد له الجميل، قضى دورمينيو جزءًا من فترة ما بعد الظهر بأكملها بجرى الاتصالات مع رجال الأعمال. وفى اليوم التالى، بدأ بازيل العمل لدى كاتب محام فى شارع فيفيان.

وكان بذلك سعيد الحظ، وذلك لأن السيد بليسيه بونتال كان مغرمًا بمصر التى لن يتمكن من زيارتها مطلقًا، حيث إنه كان يخاف من ركوب الطائرة ولا يتحمل السفر بالسفن. وخلال أسابيع، كان السيد بليسيه بونتال ينزل على ب ب وبلا من الأسئلة عن الفراعنة والبطالمة، فقد كان حتى ذلك الوقت يجهل تمامًا تاريخ مصر فى تلك الحقبة. وربما كان من الضرورى أن يكون المرء أوروبيًا ليهتم بالأوعية الفخارية والكتابة الديموطيقية وأوزوريس وأمنحتب...

ولعدم إمامه بعلم المصريين، كان بازيل يتحدث فى سعادة عما كان يعرفه مثل الهواء اللطيف الجاف والحر الذى كان يهب على صحراء الجيزة، وشواطئ الإسكندرية، وكذلك سيما الحدائق

المنتشرة في هليوبوليس، ونزهات الفلوكة في ضوء القمر... فقد كان كاتب المحامى يبحر إلى آفاق جديدة دون تغيير مقصده.

ومنذ أن وجد عملاً شعر بازيل أنه يحتضن باريس، فلم تعد نظرتَه نظرة عابر السبيل، هذا الذى كان يهيم على وجهه لا يعرف مقصده وعندما استقر به الحال شعر بنشوة الملاح.

وإذا كان اهتمام بازيل بالعمل التوثيقى معتدلاً، فقد كان نهماً حقاً فى تواصله مع الزبائن. فمع كل واحد منهم، كان بازيل يكشف الجانب الأكثر تميزاً والأكثر غموضاً والأكثر جانبية، ونادراً ما يكون هناك أشخاص لا يتمتعون بخصوصية ما، ففي الحقيقة كانوا جميعهم أناساً مهمين.

كان من اليسير على بازيل إقامة العلاقات فازدادت معارفه شيئاً فشيئاً خارج نطاق القاعة، فلقد كان دائماً مستعداً لأن يرى فيلماً أو ليشرب فنجانا من القهوة أو ليصعد فيأخذ آخر كأس... فهو يتمتع بحيوية فريدة تسمح له بالرقص حتى الثانية صباحاً قبل أن يأخذ حساء بالبصل فى مطعم الهال ويضحك كل الحاضرين بحكاياته.

وفى الأمسيات الباريسية، كان الفرنسيون يقدرّون نكات بازيل المصرية، بل كانوا أيضاً مستمتعين بجمال لكنته ومنبهرين ببراعته فى استخدام اللغة الفرنسية، حتى إنه كان يعود إلى منزله ومعه دعوتان إضافيتان ونصف دسّة من أرقام التليفونات الجديدة.

ولأنه كثير الفضول، فلم يكن ينسى أى شيء، فقد كان أيضا يتذكر جيدًا الأسماء والوجوه والمواقف المتعلقة بالعمل أو العائلية، فهو كالرادار المتيقظ دائمًا يلتقط الكلمات والأفكار والمشاعر، حيث إنه فُطر على الارتجال الجذاب.

وفى صيف ١٩٥٣، كان ابن أخ السيد دورمينيو وهو طبيب أمراض عصبية مبتدئ، يبحث دون أمل عن مقر لعمله بالقرب من حديقة مونسو؛ فجمع الأماكن التي عُرضت عليه فى هذا الحى الراقى، كانت ذات أسعار خيالية. وبازيل الذى كانت له آذان تسمع كل شيء، استطاع أن يجد له الجوهرة النادرة، فها هى شقة تضم أربع حجرات فى شارع ماليزارب العريض الذى تكتفئه الأشجار ومالكها سفير على المعاش كان يريد أن يتخلص من الشقة على عجل ليلحق بممثلة برازيلية فى ريو؛ حيث إنها كانت قد تسببت فى قلب حاله. وبعد ساعتين، تمت الصفقة وكان المطلب الوحيد لطبيب الأمراض العصبية هو تقديم خدمة لبازيل الذى ألح عليه بعد عدة شهور فى أن تقوم مستشفى سانت أن باستقبال مريض من بلدة ليل مصاب بهذيان الهلوسة. وفى السنة التالية وبواسطة بازيل أيضًا، قامت عائلة المريض المالكة لورشة أدوات تجميل بتوظيف السفير السابق صاحب الشقة وكيلًا لها فى ريو وذلك بعد أن تركته صديقته البرازيلية فجأة...

وهكذا ولد نظام بازيل.

كان بازيل يتلقى العديد من الاتصالات فى القاعة لأسباب ليس لها صلة بوظيفته ككاتب المحامى، وبين كل حالتين، كان ينبغى له تسوية بعض الأعمال فى الخفاء حتى إن السيد بليسيه بونتال كاد أن يشك فى أمره على الرغم من أنه قد لجأ إلى هذا المساعد المهم؛ وذلك ليجد له خادماً أو طاولة بليارود إنجليزية مستعملة.

وفى نهاية سنة ١٩٥٥، طلب بازيل أن يعمل موظفاً لنصف الوقت. وقد سمح له ما تبقى من ميراثه أن يشتري شقة فى شارع جيه لوساك كما كان يستطيع أن يستكمل مرتبه بفوائد بعض السندات البنكية.

ولكن بقى لبازيل أن يجد مكاناً ليقابل فيه الأشخاص الذين يرجون منه قضاء حوائجهم، وذلك لأنه لم يكن يريد أن يستقبلهم فى منزله من جهة، ومن جهة أخرى كان لا يحتمل أن يقضى ساعتين أو ثلاث ساعات يومياً فى المقاهى المليئة بالدخان الأسود، ولذلك قرر أن يستأجر مكاناً متواضعاً قريباً من منزله وكان ذلك فى أول يناير ١٩٥٦، حيث استقر به المقام فى شارع ريمون لوسوران. لم يكن لهذا المكتب مواعيد عمل محددة... فلم يكن بازيل يستقبل أحداً إلا بميعاد سابق وكان ذلك فى فترة ما بعد الظهر ولا مانع من أن يتغيب أسبوعاً أو أسبوعين وأحياناً أكثر من ذلك.

لقد كانت سلاسل الخدمات تُنسخ وتتشابك دون هدف معلن، وهذا ما كنت أطلق عليه النظام البازيلى لعدم توافر ما هو أفضل.

لم يمكث بازيل طويلاً ليكتشف أن باريس كانت تتخللها آلاف من الشبكات الخفية نوعاً ما، والتي كانت تقدم لأعضائها وظائف ومزايا وذلك على غرار اتحاد قدامى المحاربين، الذي كان يتمتع بنفوذ داخل وزارة العدل. ولكن كان الأفضل من ذلك الانتماء لجماعة الأحرار السرية أمام المحاكم التجارية... لقد كانت المحليات تتواصل فيما بينها عن طريق أشخاص رئيسيين ذوي انتماءات متعددة. وكان هذا الجانب الباريسي الخفى يشبه المترو ومحطاته ووصلاته وتحويلاته. ومنذ أن أصبح بازيل طوبوغرافياً منقطع النظير، لم يكف عن اكتشاف عالم متنامٍ ومتغير على نحو دائم وعشوائي؛ ذلك العالم الذي كان يحمل له كل يوم مفاجآت عديدة.

كان الحضور الغفير لسكان مقاطعة أوفرنيا، فى أرقى المطاعم والمقاهى بالعاصمة، واضحاً تمام الوضوح. ولكن هل كان أحد يعلم أن عملاء فندق دروو كان معظمهم من الحانات سافوا؟ وهل كان أحد يعلم أن مثل هذا الوزير وذاك المطرب كانا يوجدان فى أركادى، وهى شبكة شبه سرية للشواذ؟ وهل كان أحد يعلم أن ذلك البنك البروتستانتى يساند فى الخفاء النساء المناضلات من أجل الأمومة السعيدة أو جمعية التخطيط لمستقبل الأسرة؟

وحيث إن بازيل لم يكن ينتمى لأى منظمة أو لأى رابطة
أو جمعية سرية، فقد كان يحاول أن يزج بنفسه فى كل مكان، وكان
هذا الأمر يتم بطريقة طبيعية جداً، فقد كان بازيل يقوم بتقديم خدمة
لشخص ما، الذى بدوره يقوم بتعريف بازيل على أعضاء آخرين
لشبكة، وبذلك كان ابن عمى يختلط عن قصد بأشخاص لم يصبحوا
بعد من نوى النفوذ، ولكن كان لديهم وقت كاف ولم يكونوا يعاملونه
بتعجرف أو بتكبر، فهم إما مسئولون مقالون أو نواب فشلوا فى
الانتخابات أو مساعدون أو معاونو سكرتارية، أى شخصيات ثانوية
على اختلاف مشاربهم... أيًا ما كان مركزهم فإن ذلك لا يهم، فهم
ليسوا إلا جسورا، فإذا ما وصل يوما ما أحد منهم إلى السلطة كان
حتمًا أن يتذكر الأوقات الجميلة والاهتمام الذى كان بازيل يوليه إليه
وكذلك الخدمات التى قدمها له.

وخير مثال على ذلك رابطة قدامى الطلاب فى مدرسة
الهندسة، فقد شاعت الصدفة أن يلتقى بازيل فى إحدى الأمسيات
الباريسية بمهندس مدنى كان يساهم فى مجلة "لا جون إيه لا روج"
دون أن يكون عضواً فى مكتب الرابطة، حيث قدم بازيل لهذا الرجل
الآتى من مقاطعة بروتانيه الفرنسية، أفضل وجبة إسبانية فى باريس
(البايلا) والمكونة من أحسن أنواع السمك، كما صحبه إلى مطعم

روسى قابع على جبل مون مارتر. أما فى المرة الثالثة، فقد اقترح هذا المهندس على بازيل أن يتناول الغداء فى دار المهندسين الموجودة فى الحى السابع. وهناك اكتشف بازيل مبتهجا صالونات مطلية وأوانى مائدة مزينة بملابس عسكرية لعصور مختلفة، وفى المقهى تعرف بازيل على بعض الأشخاص من بينهم شخص مسئول عن شركة رينو للسيارات مغرم بالساعات القديمة، فقال بازيل وهو يذكر محلا غير معروف يشبه مغارة على بابا فى منطقة المحطة:

- قطعاً إنك تردت على هذا المحل فى جنيف.

فذهل المهندس وقال:

- يا للخسارة! فى جنيف ويقال إننى كنت هناك فى الشهر

الماضى.

- إن صاحب هذا المحل يزور باريس من وقت لآخر، وقد

يكون غريباً نوعاً ما؛ لكنه لطيف ويمكننى أن أدعوه إذا أردت.

وبعد أسابيع قليلة دعى بازيل لتناول العشاء فى شقة تقع فى

سان كلو، حيث كانت الجدران تغطيها ساعات حائط قديمة، حتى إن

إحداها كان يرجع عهداً إلى الإمبراطورية الأولى، حيث سلمها

مؤخراً تاجر الأنتيكات فى جنيف.

ولكن دخوله إلى محلات جاليري لافايت، كان أكثر يسراً فقد تزامن مع طرد اليهود من مصر بعد أزمة السويس سنة ١٩٥٦، فقد تقدم عدد كبير منهم إلى هذه المحلات. وبفضل معارف قديمة، ساهم بازيل بنصيب كبير في تكوين شبكة للتوظيف؛ حيث كان الوحيد بين زبائن المحل الذي يُقبل البائعات السمروات الجميلات ذوات اللكنة الغنائية، اللاتي كن يتبادلن الحكايات حول آخر فصول الصيف في الإسكندرية والضحكات العالية تختلط بدموعهن القليلة، وأعترف أنني أطلت الوقوف غير مرة أمام بعض أروقة الجاليري فقط لأتمتع برؤية وسماع هؤلاء العائيات الملونة شفاهن بروج "بيزيه".

(١٧)

- ألو بازيل باتركانى يتكلم

فاندهش الشخص اللبناني.

- ربما تتذكرنى يا سيدى الفارس فقد قلت لى إنك نائب رئيس

مؤتمر سان فان سون دو بول فى لبنان، أليس كذلك؟

فأجاب صديق والدى بصوت حذر يكاد يكون عدائياً:

- نعم إنك على حق.

فبادره بازيل قائلاً إليك موضوعى:

هناك سيدة مسنة تسكن فى تولوز ترغب فى أن تخصص

مبلغاً كبيراً لجمعية كاثوليكية تمارس نشاطها فى الخارج ففكرت فى شخصكم.

لم تكن هذه لهجة رجل يريد شراً أو مزاحاً، فإذا بإميل الفارس

يوضح صوته ويغير نبرته قائلاً:

- تقول مبلغاً كبيراً؟

- نعم ويمكن أن نتقابل إذا أردت.

وفى اليوم التالى، عاد رجل الأعمال اللبنانى من شارع ريمون لوسوران بعد مقابلة مع بازيل دامت ساعة ونصف وقد انقلب حاله، إن جلسة خاصة مع البابا لم تكن لتؤثر فيه على هذا النحو. ولكن ابن عمى كان قد طمأنه وهو يعرض عليه بكلمات بسيطة وواضحة عرض سيدة تولوز، ثم أمتعته بقصة مضحكة حول فاعلة خير من جنيف كانت ترغب منذ سنين فى تمويل بناء مدرسة إكليريكية فى جزر جالاباجوس، حيث كان بازيل قد سأله متعجبا:

- فى جالاباجوس! لكن يا سيدتى لا يوجد أصلاً أى كاثوليكي

هناك.

فأجابته قائلة:

- بالضبط، ولكن هذا المركز سيدفع بالكاثوليكين إلى

المجىء.

وقبل أن يقبل إميل الفارس العرض الذى قدم له، قام بالاستعلام تفصيلاً عن نشاط محدثه، فلم يكن يستطيع أن يتخيل أن بازيل يعمل شيئاً دون مقابل، حيث إن هذا العمل التطوعى الخفى كان يبدو للفارس شيئاً عظيماً للغاية. وقام إميل بمقابلة ب ب مرة أخرى وأخذ يسأله لمدة ساعة ثم رجع والدموع فى عينيه معلناً أنه على استعداد أن يقدم له أى خدمة فى أى وقت فى بيروت، وفى

باريس وفي أى مكان آخر. وفي الشهر التالى، قال لى إميل الفارس وهو يسلمنى طردا صغيرا أرسلته لى العائلة:

- لقد كنت مخطئاً فى تقديرى لابن عمك، فهل تعرف أن بازيل يخصص نصف وقته لخدمة الآخرين دون أى أجر، فهو لا يقوم فقط بفعل الخير ولكنه يدفع الآخرين لعمله، إن هذا الرجل لقديس.

فبعدهما كان يعامله بوصفه لصاً أو فاسقا، هاهو ينعم عليه بهالة القداسة!

حيث أضاف قائلاً بنبرة العارف:

- صدقنى إن هناك أناسا تُطَوَّب لأفعال أقل من ذلك بكثير، وأخذ يشرح شرحاً علمياً:

- يعمل هذا الرجل فى الظل، بالطبع يحتاج القديس للصمت والفتنة والتواضع. وإذا كانت القداسة بطولة، فهى لا تتجلى من خلال أعمال غير عادية، بل تظهر فى أبسط مظاهر الحياة اليومية ودون جلبه، ألا ترى ذلك.

لقد كان بازيل باتركانى يضلل محدثيه تماماً كما كان يفعل القديس فرنسوا والقديس برنار والقديسة تريزا دافيللا...

وأكمل الفارس حديثه قائلاً:

- إن القديسين لا يحاولون أن يقنعوا، ولكنهم يعملون ويعطون المثل، فهم يتمتعون بحنو عفوى ولكنهم يسلكون طرقاً تختلف عن طرق العامة. فهم لا يخضعون للمعايير، حيث إنهم لا يقعون تحت طائلة القانون إلى حد ما، ولذا كما ترى فإن عصرهم لا يفهمهم، وهم أنفسهم يجهلون قدسيتهم التي لن تعرف إلا فيما بعد.

القديس بازيل! إن هذه التسمية لا تتناسب مطلقاً مع الصورة التي كنت قد رسمتها في مخيلتي لابن عمي، بل إنها تتناقض تماماً مع ما كنت أعرفه عنه وفي نظري يعيش القديس في نشوى دائمة وقد تكون مؤلمة؛ فهو يحمل العالم على كتفيه وكل عطاياها تتبع من حرمان، فهو يتجرد من كل شيء ليقدم قميصه لمن هو أكثر منه فقراً، وأعماله لا تجلب له أى مجد وغايته الوحيدة هي رضا الله، إن القديس يعطى دون حساب ولا يتلقى أى مقابل وهو على أى حال لا يحتاج لشيء، فهو إنسان سامٍ لا يضاهيه أحد من معاصريه.

أما أنا فكنت أرى بازيل بعيداً كل البعد عن هذه اللوحة السماوية.

وبخصوص الحادثة التي وقعت لزميل في الكلية أثناء مشاجرة مع رجال الشرطة، قال بازيل:

- أحضر لى هذا المستند وسأرى ماذا أستطيع أن أفعل.

وأعطاني بازيل موعدًا في قهوة لا تبعد كثيرًا عن منزله، وعندما ذهبت اندهشت حيث وجدته جالسًا على منضدة مع لورانس موبرجيه التي كانت متألقة وتضم بين شفيتها سيجارة وكان عطرها وأناقته وهينتها المثيرة تجعلني مضطربًا، وبصوت شارد سألتني عن أخباري إذ كان من الواضح أن هذا السؤال لم يكن ليؤرق نومها...

ومن خلال عبارات قليلة فهمت أنها لم تعد إلى بازيل فهي تعيش مع جون بارترون الذي كان يشغل وظيفة مستشار قانوني. وقد قالت لبازيل:

- لا بد أن أعرفك عليه لذا سأقيم حفلة عشاء.

وفي جمعنا الثلاثي كنت أشعر أنني الشخص الأقل ارتياحًا.

كانت هناك مناسبات أخرى تتيح لى معرفة عاشقات بازيل
السابقات اللائى ما زال يحتفظ بعلاقات ممتازة معين؛ إما بإسداء
خدمات لهن أو بعدم ترده فى طلب أى خدمة منهن. وأحياناً كان
يذكر هذه أو تلك بكل تلقائية قائلاً:

- فى سنة ١٩٥٩ كانت لى صديقة التى ...

لا لم يكن بازيل رجل العشق الأوحد. وعلى أى حال، لا أحد
يستطيع أن يتخيله فى عش الزوجية مع زوجة وأولاد. وفى حين
يستمتع الرهبان بحرية العزوبية كانت حرية بازيل تكمن فى علاقاته
المتعددة فكان مخلصاً ولكنه لا يقتصر على واحدة.

ولو كان إميل الفارس قد تحمل عناء متابعة مغامرات ابن
عمى العاطفية، لقام دون شك بمراجعة حديثه حول مفهوم القدسية،
فلقد كان بازيل يعمل ما يحلو له، وقد رأيت عدة مرات يبذل قصارى
جهده لىساعد سيدة جميلة أو على العكس لىصد شخصاً لحوحاً فى
مطلبه ممن لا تروق له هيئتهم؛ فلم يكن عابداً فى جب الأسود، ولم
يقبل جروح مرضى الجذام ولم يكن شهيداً ولا صوفياً ولا من
الرهبان الذين يستجدون معونة الفقراء: كان لا يعرف التضحية
أو الجلد.

والآن اعتدت الذهاب ثلاث مرات إلى أربع شهرياً إلى شارع
ريمون لوسوران فى بداية المساء، فإذا وجدت بازيل مشغولاً مع

زائر، كنت أجلس في صالة الانتظار وإلا كان يستقبلني في مكتبه
وكنت أحضر بعض مكالماته الهاتفية.

وذات مساء دخلت عليه بينما كان مشغولاً تماماً بمكالمة
هاتفية؛ فلم يكن ذلك بازيل الذي أعرفه، لقد كان منتصباً مقطب
الحاجبين وكان قد أبعد السماعاة عن أذنه حتى لا يصمه صراخ
الصوت وقال مرتين:

- لا يا جونيفاف إنك لست على حق!

وبعد برهة قال:

- أوكد لك أنك مخطئة، إن تاجر الأنتيكات الموجود في شارع
السان لم يبع مطلقاً هذه الأثفية.

وأدركت فجأة أن جونيفاف أش مالكة صالون الشاي هي التي
كانت تصرخ في التليفون وعندما وجدت نفسي محرّجاً، أشرت له
بأننى سوف أذهب لشراء جريدة، وخرجت ولدى عودتى بعد ربع
ساعة، كان بازيل منكمشاً في مقعده، يمد قدميه على المنضدة، حيث
كان يتحدث بهدوء مع شخص آخر فلم أسأله عن المشهد السابق ولم
يحك لى عنه شيئاً.

كانت شركة أوترتار أحد أكبر نجاحات ب ب، حيث إنها شركة مزدهرة. وحسبما عرفت فيما بعد، لم يكن بازيل يمتلك سهماً واحداً فيها. لقد انطلقت الشركة عام ١٩٥٨، وكانت تركز على أسس ضعيفة وبعدها ارتقت تدريجياً إلى مستوى أكبر الشركات الفرنسية المنظمة للرحلات. ولقد شهدت له حرفيته الوظيفية بمهارة منقطعة النظير لزيارة بلاد بعيدة مثل الهند أو بالي. أما شريكه الاثنان في الإدارة السيد جون ميشيل لو بولك، والسيد روجيه مارينيللي، فكانا من نصيبهما أن تصدرا غلاف مجلة أمريكية.

وهناك، لم يكن الفرد يسكن الفنادق ولا الأكواخ (البنغل) ولكنهم كانوا يقيمون عند ساكن ما بعيدا عن الأماكن السياحية. ومع ذلك كان لهم أنشطة مشتركة يديرها أناس على معرفة جيدة بالبلدة؛ فشركة أوترتار فضلاً عن أنها تقدم نموذجاً لكيفية قضاء الإجازة، كانت أيضاً قد ابتدعت أسلوباً آخر للسفر.

لقد قدمنى بازيل للسيد مارينيللي والسيد لوبولك أثناء حفلة كوكتيل ريفية في مواقع الوكالة التي كانت تحتفل بالزبون رقم عشرة

آلاف، حيث كانت الصالة مزينة بـصور ضخمة لأوروبيين يرتدون الثوب وعلی رءوسهم برانیت من القش وهم يشوون الخراف علی الأسياخ، أو یحملون قریبا من الماء علی ظهر الحمیر، وفی كل مكان كان یظهر شعار الشركة الشهیر ("هناك عالم آخر").

كان روجیه مارینیلی ذلك الرجل الملتحی الضخم، یظهر بقمیص منقوش بالورود وكان یشغل مكانا بارزا بجسمه الضخم وحركاته الغیر المنتظمة، وكذلك بضحكاته الرنانة؛ فلم یكن یتجاوز الثامنة والثلاثین من عمره ولكن بدانته كانت تعكس علیه هیئة تكبره بعشر سنوات. وقبل أن یذهب هذا الجنوبی الذی كان یحلم بأماكن بعیده منذ طفولته إلى باریس، كان قد أقام أسواقا فی نیس وتولون.

أما جون میشیل لوبوك، فقد كان طفلاً من نوبیه وهو مغرم بالعالم الهندی وكان صوته أجش كأنه مصاب بالبرد ولدیة هیئة برهمانية. وحتى عام ۱۹۵۸، كان یقضى نهاره فی مكتبة مدرسة اللغات الشرقیة، حیث كان مستغرقا فی أبحاث علمیة.

إن بازیل هو الذی قدم أحدهما للآخر؛ فاستشعر مقدما أن الله قد خلقهما حتى یتفاهما وأن أحدا لم یكن لیراهن مطلقا علی نجاح هذا الارتباط الغریب. ومنذ ذلك الحین، كان بازیل بمثابة العامل المساعد لتفاعل كیمیائی غیر منتظر.

وفى الصيف التالى ذهب مارينيللى ولوبولك معًا فى رحلة إلى كشمير استغرقت عدة أسابيع ولدى عودتهما، أسسا شركة "أوترسيو" التى سرعان ما تحولت إلى "أوترتار". ولقد عثِرَ بِبِ لهما على مكان للشركة بسعر مناسب فى الحى الحادى عشر، ثم سهل لهما الحصول على قرض بنكى بشروط مميزة وعرفهما أيضًا برجل ثالث يدعى فيالا وهو موظف سابق فى وكالة هافاس وكان عاطلاً. ودون هذا الشخص الأساسى الذى أصبح العمود الفقرى للشركة، لم تكن شركة أوترتار لترى النور.

كانت الشركة تخدم الأشخاص المغرمين بالترحال من ذوى الموارد المحدودة الذين لا تخيفهم ظروف الحياة القاسية. وقبل الرحيل بعدة أسابيع، كانوا يجمعونهم فى حفلة نهاية الأسبوع للاستعداد للسفر وذلك فى أحد بيوت الشباب بالقرب من فونتانا بلو. وفى هذا المكان كان هؤلاء الأفراد يتعرفون على رواد الشركة وكانوا يستعلمون فى شيء من التفصيل عن عادات وتقاليد البلد المختار.

هذا، ولقد كانت أول طائرة شارتر فى أندونيسيا خلال صيف ١٩٥٩ على وشك أن تحدث كارثة؛ فقد كانت تحمل اسم "كونستلاسيون" وهى مؤجرة من شركة أوترتار حيث تعطلت فى سنغافورة وتوقفت تمامًا لمدة ثمان وأربعين ساعة. ولكن روجيه مارينيللى الذى كان من بين المسافرين، نجح فى تحويل هذا الظرف

الطارئ إلى أوقات مرحة. فسرعان ما امتلأت صالة المطار بالمراتب المحمولة (أكياس النوم)، بينما كانت تتناغم آلات الجيتار والناى وعدد كبير من الهارمونيكا. وبعد أسبوعين تلا هذه الأمسية التى لا تتسى معسكر للكشافة أقيم على شاطئ كوتا فى بالى ولم ينفذ حتى شروق الشمس.

ونشرت مجلة "فرانس سوار" صورة فى الصفحة الأولى تحت عنوان جذاب "معسكر بدائى فى سنغافورة"، وكان بمثابة إعلان غير منتظر لشركة "أوترتار". ووجدت الشركة شعارًا آخر لها، ألا وهو "فن التأقلم مع المفاجآت"؛ فمع الشركة لا يكون السفر مختلفًا فحسب، بل المفاجآت أيضًا.

ومنذ السنة التالية، حققت الشركة أرباحًا وبذلك ضاعفت أصولها ونقلت مقرها إلى ميدان مونبرنص. هذا المكان الذى سيصبح مكانًا أسطوريًا لجيل كامل من السائحين الذين نطلق عليهم سياحا فوق العادة. ولعمليات التوظيف، كانت الشركة تعرف إلى من تتوجه؛ فقد كان دائمًا بازيل هو الذى يعين الموظف أو المحاسب أو المغامر المطلوب. وفى سنة ١٩٦٤، كان ثلث موظفى الشركة البالغ عددهم مائتين وخمسين فردًا يأتون من شارع ريمون لوسوران.

لم يكن ب ب يريد مقعدًا فى مجلس الإدارة ولا مشاركة فى الأرباح ولكن لوبولك ومارينيللى ألتا عليه قائلين:

- على الأقل دعنا نوفر لك مكتبا أفضل من ذلك وسكرتيرة!

فرد قائلاً وهو يغمز بعينه:

- إننى لست بحاجة إلى مكتب؛ فهذا المكان ليس إلا محطة

للخدمات.

فقررا إذا أن يتحملا نفقات الإيجار والتليفون وكذلك مصاريف

منزله القابع فى شارع ريمون لوسوران، وفى هذه المرة سكّت مدعنا

ومنذ ذلك الحين أصبحت خدماته بعيدة عن أى أعباء مادية.

لم أذهب سوى مرة واحدة للمكان الذى يعمل فيه بازيل لأحمل له خطابا عاجلا كان ينتظره، وكان ذلك فى صباح أحد أيام فصل الشتاء حيث يغطى رذاذ المطر كل شيء، وبدا لى شارع فيفيان مزدهراً وراقياً...

هناك وبنبرة متكلفة استقبلتني سكرتيرة بدت لى طويلة القامة تحت تأثير حدائها العالى المدبب كما كانت حبيسة ردائها الرمادى المؤلف من جزأين.

أدخلتني هذه السكرتيرة إلى صالة انتظار ثم إلى مكتب كبير حيث كان يعمل أربعة موظفين فى سكوت تام. فُتِحَ باب وظهر بازيل بقميص مشمور الأكمام وهو يبتسم كعادته:

- شكرا يا عزيزتى. قال ذلك وهو يبعث لها بقبلة على أطراف أصابعه، الأمر الذى أذاب جمودها على الفور.

تسلل قليل من الهواء المنعش إلى قاعة بليسيه بونتال، الذى ربما كان هو أيضاً غائبا أو مختلياً بنفسه فى مكتب آخر.

إذا كان بازيل يتمتع بمكانة خاصة في هذا القبر، فهذا لا يرجع فقط إلى عمله فيه لنصف دوام، بل لأن الكاتب الشرعى لم يكن ليستغنى أبداً عن معاون لديه مفكرة تمتلئ بالعناوين مثل تلك التى فى حوزة بازيل، علاوة على ذلك فإن بازيل كان يشغل منصبا لا غنى عنه فى هذه القاعة؛ فقد كان دائماً ما يدافع عن هذا أو ذاك من زملائه الذين كان خجلهم الشديد يمنعهم من مواجهة صاحب العمل الذى كان فظا حتى فى غضبه الصامت.

- سيدى كنت أريد أن أحدثك عن بلونشو.

فهمهم بليسيه بونتال قائلاً:

- وماذا أفسد بلونشو أيضاً فى هذه المرة؟

- لا بد له أن يتغيب فى نهاية الأسبوع بسبب زواج شقيقة زوجته.

- من؟ شقيقة زوجته! وماذا أيضاً؟

- يا سيدى إن شقيقة الزوجة لا تقل أهمية عن الحماة. هذا مثل عند قدامى المصريين.

لم يبتسم بليسيه بونتال ولكن تنهد أما بلونشو فقد حصل على الإجازة التى كان يرغب فيها.

ومن جانبه كان بليسيه بونتال يتوجه إلى بازيل لتسوية كل المسائل التي تثير غضبه، فقد قال له ذات يوم:

- هذا شيء لا يصدق.

- إن هذه القاعة تغلق أبوابها في مواعيد مكتب البريد، هناك أمور طارئة، ففي يوم الأحد الماضي في فترة ما بعد الظهر لم أنجح في العثور على ملف التأمينات، حينئذ قام السيد بازيل بتقديم اقتراح إلى زملائه، وهو أن يتم تنظيم حضورهم احتياطياً يوم الأحد وذلك نظير مكافأة.

فقبل الزملاء ذلك الاقتراح ولكن بعد مناقشات طويلة، إلا أن بليسيه بونتال رفض رفضاً باتاً معلماً:

- لن أضع شيئاً مقابل الساعات الإضافية.

فرد بازيل:

- يا سيدى ليست المسألة مسألة ساعات إضافية، ولكن الأمر يتعلق بمكافأة ستكلفك حقيقة أكثر من ذلك.

فأجابه بليسيه بونتال:

- ماذا؟ أكثر من ذلك ... يبدو أنك قد جننت.

ثم قام السيد بازيل بشرح مطول للنظام البديع الذي كان يتصوره.

ومنذ الشهر التالي، انقلب نظام العمل رأساً على عقب، وفي ظل مواعيد أكثر مرونة أصبحت قاعة بليسيه بونتال أول قاعة في باريس تعمل سبعة أيام في الأسبوع.

كان ابن عمي يعبر كل صباح نهر السين ليذهب إلى شارع فيفيان متمسكا بهذا العمل الذي لم يكن يعتبره حاجزا يعبره فحسب، بل أيضاً مورداً للرزق. ولكن ترى هل كان سيحاول دون هذه الأعمال الصباحية الإجبارية تحويل نشاطه المسائي إلى مهنة ويصبح هو نفسه بيروقراطياً؟

لقد كان المكتب يذكره في كل وقت بصرامة بعض القوانين وعبئتها، حيث إنه لم يكن ليتواعم قط مع المصطلحات القانونية التي كانت تدهشه أو تضحكه.

أكان وجود " الموهبة اليدوية " يعني أن هناك مواهب أخرى آلية أو روحانية؟ أم أن العطاء بين الأحياء يفرض وجود عطاء آخر بين الأموات؟

- لاحظ بازيل أن القانون المدني مخيب للأمال، فلا مجال فيه للمشاعر أو الخدمات، ولكنه يضم آلاف البنود التي تتعلق بالعبودية.

فسرعان ما فهم زملاؤه أنه لم يكن منافسا لهم فقد كان يعلق في شيء من السخرية قائلاً:

- أنا أول كاتب عدل يعمل نصف دوام، ماذا تطلبون أكثر من ذلك؟ ويضيف ممسكاً بعصا المارشال قائلاً:

- على الجانب الأيمن أعمل وعلى الجانب الأيسر أشعر بالمتعة.

العمل أولاً والمتعة ثانياً، لم يكن ليحتمل العكس. كان يترك نشاطاته الشخصية ليختتم بها يومه.

فمنذ الثانية بعد الظهر حتى الثانية صباحاً، كان بازيل يعيش حراً كالهواء الطلق.

كان النشاطان اللذان يقوم بهما بازيل يبدوان متضادين تماماً، ففي القاعة كان كل شيء محسوباً ومنظماً ومنسقاً بما يتيح الخوض في عالم الضمانات الرهنية والأنصبة والحصص.

أما في شارع ريمون لوسوران (فكان عالم الخمر والرقص) حيث تهيمن مملكة الشك والمفاجآت؛ فلا كود ولا عقد ولا وثيقة ولا توقيع ولا أثر مكتوب لأي شيء.

بين بازيل في الصباح وبازيل في المساء، كان نهر السين يبدو أكثر اتساعاً من محيط.

لقد كانت قاعة السيد بليسيه بونتال مدرسة للدقة، حيث يخضع
أى عمل موثق هناك لتحقيقات لا حصر لها. فبازيل الشرقى الذى
نشأ فى مجالات التقريب، قد تعلم الآن علم الرياضيات.

وعلى الرغم من مسئولية الكاتب الشرعى ومساعديه عن سر
المهنة، فلم يكن أى قانون من هذا النوع يطبق فى شارع ريمون
لوسوران، ومع ذلك لا يحب بازيل مطلقاً الحديث عن كيفية إسدائه
لخدمة ما وكان يقول:

- الخدمة كالهديّة لا يترك أبداً ثمنها عليها.

اكتشفت عن طريق الصدفة أن ب ب كان يقوم منذ عدة سنوات بتقديم سكن مؤقت للمهاجرين وللقادمين من الضواحي، الذين يصلون لتوهم إلى باريس أو للضواحي، دون مورد للرزق. ولدى علمه أن طبيب الأسنان يمتلك شقتين شاغرتين فى الحى التاسع عشر، فاجأه بازيل بطلب شقة منهما وهو يحدد موعدا للاستشارة، فرد الطبيب قائلاً:

- لكننى ليست لى نية لتأجيرهما.

فقال بازيل:

- ليس للإيجار، ولكننى أرجو أن يصبحا تحت تصرفى مجاناً بعض الوقت لصالح أشخاص يمرون بأوقات عصيبة.

فسأل الطبيب متعجباً:

- لكم من الوقت؟

- الوقت الذى تريد.

ولمدة ثماني سنوات بعد ذلك، ظل المنزل تحت تصرف ابن عمي، وظل الطبيب مدينا له بعدد هائل من الزبائن.

وفي هذه الفترة وقع تحت تصرفه أيضا مكان تم تحويله إلى بيت صغير في منطقة شونتيه. كان مئات الأشخاص يدينون لابن عمي بجميل كبير ومن هذه الشخصيات "القدامي"، شخص يدعى سارج جاليوري، حيث كان هذا الرجل مرحلا من الجزائر وكان من المؤكد أنه سيصبح ثريا لاختراعه شفاطا صغيرا لأجهزة دقيقة. وعند وصولي إلى فرنسا في ١٩٦٣ كان هذا الشخص أحد أعمدة شبكة ب.ب.

ومما كان يؤثر في نفسي، هو أن ابن عمي كان يتحدث في الهاتف مع جميع محدثيه بنبرة واحدة، فالموظف الكبير أو الدبلوماسي لم يكن ليعامله أفضل من عامل مسكين يقف أمام كابينة تليفون بالعملة أمام مرادح مقي. فقد كانت عبارة: "صباح الخير" الموجهة للسيد السفير لا تختلف عن تلك التي يوجهها لحارس مبنى أو سباك، فكان ذا نبرة مهذبة ومرحبة دون مبالغة.

لم يكن بازيل يمتلك سوى هاتف واحد ذي مينا سوداء. ومعه لم يكن الاتصال ينقطع، وكانت خبرته تسمح له باستيضاح الاتصال منذ اللحظات الأولى، فكان يلاحظ أن المتكلم يرفع صوته عندما يتصل من مكان بعيد، وبغريزته كان يحلل سرعة الصوت وإيقاعه ونغمته. فقط كانت تكفي كلمة "ألو" للسماح له أن يتعرف على الحالة

النفسية لمحدثه أو على الأقل على السبب من الاتصال، ثم يستشف إمكانية الحل بسرعة البرق كما لو كان يحتفظ بكل علاقاته في ذاكرته.

وكان يقول:

- سارى ماذا يمكننى فعله.

فى حين أنه كان يعرف مسبقا ويرى إذا ما كان تدخله سيجدى أم لا، فكانت أحد هذه الأشياء أن يجد مسكنا لمستأجر موسر، أو أن يسمح لأحد أنصار دى جول المغمورين والذي يسكن فى أقاصى مدينة الكيرسى أن يتم استقباله فى قصر الإليزيه لمصافحة معبوده.

وفى التليفون عندما كان يقول "إننى أسمعك"، لم يكن ذلك نوعاً من عبارات المجاملة، بل كان يعنى أيضا أنه كله آذان صاغية، إذ كان يضع نفسه مكان الآخر فيرتدى عباءة محدثه، وكانت تعبيرات وجهه تعكس ذلك، فقد كانت كل ذبذبة فى خط التليفون تدفعه إما ليبتسم أو ليقطب حاجبيه.

- هنا بازيل باتركاني. إننى أسمعك... كان ذلك على شاكلة "رن وادخل". فلقد كان ب ب يعلم أن اللحظات الأولى من الاتصال أساسية: فالطالب إذا ما شعر بالخرج سيغلق الخط ولذا كان يشجع الشخص على الحديث وأحياناً يرسل صوتاً خفيضاً، حنوناً تعبيراً عن ابتسامته عبر الأثير.

تعلم بازيل كيف يعرف مكالمات المكرويين التي غالباً ما تأتي في فترات الأعياد أو في نهاية الأسبوع أو في بداية السهرات، ودون أن يخدعه أحد، كان يحدد موعداً.

كان هذا البطل يستطيع التعامل مع كل العناصر، حيث كان يرتجل كما لو كان مصلحاً اجتماعياً أو طبيباً نفسانياً، فمن أجل أن يريح زائره الذي يجلس على طرف المقعد وأصابه متشابكة، كان يحكى له قصة وغالباً ما تكون غريبة ونادراً ما تكون في صالحه. فكان ينجح بذلك أن ينتزع ابتسامة من محدثه ثم بعض الكلمات، وفيض من الكلام يتدفق بعد ذلك.

وهكذا كان بازيل يوجز الإسعافات الأولية قاتلاً:

- بالنسبة لمصابي حوادث الطريق يجب علينا أن نتحدث إليهم، أما المقهورين في الحياة فيجب أن نتركهم يتحدثون.

لقد كان بازيل يتأني بحضور كامل دون أن يبحث عن النقائص التي تسمح له بالتدخل. فقد كان حقا " يعطي " فرصة للكلام، وعندما كان يتحدث في النهاية لم يكن هو الذي يتحدث، حيث كان يتبنى بغريزته إيقاع صوت زائره ونبرته، وأيضا بعض حركاته. كان هذا التقليد مؤثرا للغاية وفي غضون ساعتين من الحوار مع شخص من مارساي، كان يستطيع تلقائيا التلطف بكلمات بلهجة أهل الجنوب... إنه حقا لحرباء.

ولكن هل كان لديه جرح خفى هو الذى يجعله أكثر تفهماً
لهذه النفوس الضعيفة؟ حتى إنه كان أحياناً يصاحبهم إلى أسفل مدخل
المبنى أو إلى محطة المترو ويودعهم على مضض، فى شيء من
اللطف والحيلة.

قالت سابين باستنكار:

- كيف تصف ابن عمك بالوسيط! هذه الكلمة مرعبة فهى تذكرنى بالسمنسار.

كنا نمشى جنبا إلى جنب فى ممرات حديقة النباتات التى قد دعتنى سابين لأزورها، حيث كانت هذه أول مقابلة لنا من دون بازيل، وكان من الطبيعى أن نتحدث عنه، فتساءلت:

- هل تقصدين أن أصفه بالمصلح؟

- إذا كان ولا بد، فلماذا لا يكون صاحب جراج!

فسكنت للحظات ثم توقفت تماما أمام مدخل صوبة كبيرة وقالت:

- من الأفضل أن تقول إنه واهب أو محسن.

فأجبت قائلاً:

- إن بازيل لا يحب مطلقا هذه الكلمات الرنانة، كما أنها تدل على معنى واحد؛ أما بازيل فهو دائما ما يصل بين شخصين، فهو إذا أداة للوصل أو الربط.

- يا له من شعر! لكنى مازلت أفضل كلمة وسيط.

لقد كانت سابين محرمة على وكنت أنظر إليها خلسة، وإن لم تكن هذه النبتة القمحية الجميلة، التي جعلها الربيع نصف عارية بتورتها القصيرة وصندلها ذى السيور الرفيعة التي تزيد من جمال ساقها، صديقة لابن عمى، كنت سأفعل أى شيء لإغرائها. ففى أحلام اليقظة كنت أعد كل أنواع السيناريوهات العبثية بعيدة الحدوث: لقد كان ب ب محباً لعمل الخير، فكان يسمح بالتقاسم أو كان يختفى ليفسح لى المجال...

كنت أشعر بالحاجة لمعرفة نشاط بازيل، فقد كان يبدو لى أداة للوصل بين الأشخاص أو ربما جسراً؟ ولكن هذا المعنى يبدو مجرداً وكان يجب التركيز على التبادلات. ولكن كلمة "مبادل" كانت أيضاً تبدو غامضة، فهى تذكرنى بالسكة الحديد وكأنى أقول محول سكة حديد ولماذا لا يكون وكيلاً للتبادلات.

كان يجب على أن أتهدى على الدوام، لكى لا أخلط بينه وبين الصراف الذى يتلاعب بالعملات.

فى المنتزهات المصممة على الطريقة الفرنسية، شرحت لى سابين بالتفصيل مربع الورد المكون من أربعمائة وأربعين نوعاً. ثم جذبتنى إلى متاهة لترينى شجرة الأرز اللبنانية التى ترجع إلى القرن الثامن عشر. وعندما وصلنا أمام جناح البرونز الصغير باغتها قائلاً:

- إن بازيل عامل تليفون عمومي أو خاص

فنظرت إلى بمكر وقالت:

- هذا صحيح فهو يجري اتصالات تليفونية عديدة.

- ولكن لا، ليس هذا ما أود أن أقوله! إنه يذكرني بعاملات

التليفون اللاتي كنت أراهن في طفولتي في نادي سبورتنج في هليوبوليس، فلم تكن قاعة التليفون تبعد كثيرا عن حمام السباحة حيث كن يجلسن أمام لوحة كهربية والسماعات على آذانهن ولم يكن يكفن عن إدخال الفيش في منيّمها، فيتحقق الاتصال بين المتحدثين. لقد كنت أجلس أوقاتا طويلة أراقبهن أثناء قيامهن بهذا العمل.

كانت سابين تريد أن تسمعني وأنا أتحدث عن بازيل فسألتني:

- وكيف كان نادي سبورتنج؟

فذكرت لها المجموعة التي كانت تتكون من عشرين أو ثلاثين

شابا مستهترا، هذه المجموعة التي كانت ترى في بازيل رائدا لها؛ ولكي أعطى لنفسى قدرا من الأهمية ذكرت لها محاولة انتحار الجميلة زينة دكاش فتعجبت قائلة:

- هذه الأفلام السينمائية! ومحاولات الانتحار الفاشلة من

طبائع النساء، فعندما يريد المرء حقا قتل نفسه فإنه لا يخطئ أبدا.

حاولت أن أنهى هذه القصة التي تحدثت عنها دون حذر،
ولكنها أصرت قائلة:

- لقد قلت إنها قد فقدت الوعي عندما جاء ليحضر لها الورد؟
ولكن هذا غير معقول! فهل رأيت أحداً من قبل يفقد الوعي من
التأثر؟ قد نبكى، نرتعش... لكننا لا نفقد الوعي مطلقاً، لقد كانت دون
شك متصنعة. فقلت:

- بالتأكيد

- وكيف أصبحت تلك الناجية؟

- لقد تزوجت من جواهرجى من القاهرة... أى زواجا
سعيداً...

- أ رأيت!

لم أكن أرى سوى عينيها الجميلتين اللتين كانتا تلمعان لشخص
آخر.

كانت صورة عاملة التليفون تلاحقنى، ولاحظت أن ب ب عندما كان يُطلب منه أن يصلح بين متخاصمين، كان ينسحب على أطراف أصابعه قبل انتهاء المفاوضات تاركًا بذلك هؤلاء ليحسموا أمرهم بأنفسهم، فقد كان يتصرف مثل عاملات التليفون اللاتى يقلن "يمكنكم التحدث الآن" ثم يتركن المتحدثين.

وكان اللجوء إلى بازيل الوسيط يتم ليكون حكمًا فى المشاجرات، فقد كان يمتاز بقدرته على إزالة التوتر ببعض الجمل المزوجة بالفكاهة التى كانت بمثابة زيت شرقى يهدئ من ثورة العقول الجامحة.

لكن كلمة "حكم" ليست مناسبة، فقد كان مبدعًا ذا عبقرية خارقة، ساحرا لا يقنع بالمعتاد من الأمر، بل يؤثر الجديد المبتكر.

وكان يسعد عندما ينهى صراعًا ما كسعادته بتقديم شخص لآخر. فهو يحب الصلح كحبه لنسج علاقات جديدة ... لذلك فهو نساج ... ولكن، ترى هل تزعج هذه الصورة سابيين؟

بعد مرور عدة أيام، ذكرت أمام ابن عمي عاملات التليفون في نادى سبورتنج فلمعت عيناه من السعادة قائلاً:

- نعم، حقاً إننى أتذكر تلك الآتسات جيداً! ففي زمنى كانت هناك عاملة قبطية رائعة تدير رعوُسنا جميعاً... كانت هؤلاء العاملات يتميزن بالجدية والتركيز فى العمل. وكنت أتخيل أنهم قد يخطئن أحياناً مثلما أخطئ.

فوجهت إليه نظرة مستفهماً فرد قائلاً:

- تلك الأخطاء تحدث صريرا وضجيجا ولبسا وربما أيضاً كوارث.

وحدثنى أنه منذ ثلاث سنوات مضت، كانت صفقات تجارية عادية توشك أن تتحول إلى جرائم دموية. وشاءت صدفة غريبة أن يقيم علاقة بين نائب من مقاطعة بروتانيه كان يبحث عن منزل مؤقت، وبين وكيل للعقارات؛ الذى لم يكن سوى عشيق لزوجـة النائب. فعندما ذهب النائب لزيارة هذه الشقة، قابل وجهها لوجه السيدة التى كان يعتقد أنها تبدل إصيص الجيرانيوم فى منزلهم فى منطقة لانيون. وقال بازيل:

- لقد حرصت على اختيار وكيل للعقارات ونائب ينتمى كلاهما إلى حزب سياسى واحد: فهو رجل مناضل يتبنى أفكارا

صريحة. كان ينبغي لى توخى الحذر، حيث إنه أثناء عقد اتفاقية للحزب، وقعت السيدة فى غرام ذلك الباريسى.

فقلت:

- وكيف انتهت هذه المشكلة؟

- طبعًا بالطلاق الذى طلب منى النائب أن أتفاوض بشأنه مع الطرف الآخر. وعلى الفور شعرت بالخزى من نفسى، ولكننا قد توصلنا إلى حل ودى أرمى الطرفين، وتزوجت السيدة هذا الوكيل. أما بالنسبة للنائب فكان على وشك أن يتزوج مساعدته فى البرلمان وأراد أن أكون شاهدًا ولكننى صحت فى وجهه قائلاً: " كفى "

- فقد كنت شاهدًا على عدد لا حصر له من الزيجات، ولدى أبناء كثيرون بالمعمودية؛ إن تعدد الوكالة هذا يجب أن يمنع القانون.

لم تكن الهجرة مأساة بازيل حتى وإن كانت تتملكه أحياناً نفحات من حنين. فهو ينتمى إلى هؤلاء الأشخاص الذين يتأقلمون تحت أى سماء وفى كل الأوساط، بينما لا يشعر آخرون بالراحة فى أى مكان وهنا تكمن قدرته الحقيقية.

هذا ولقد منحت له الجنسية الفرنسية فى عام ١٩٥٧ دون مشكلة. وفيما بعد اقترحت بعض التشكيلات السياسية اليمينية واليسارية عدة مرات انتخابه فى قوائمها؛ لكنه رفض كل هذه العروض لأنه لم يكن يحتاج لمثل هذا النفوذ ليشعر أنه مندمج فى المجتمع الفرنسى. فلقد كان يفضل أن يمارس سلطته فى الخفاء فلم يكن قائداً يتقدم صفوف الآخرين ولا فوقهم ولكن دائماً وسطهم. فقد كنت أراه وكأنه مركز لدائرة يتزايد نصف قطرها على الدوام، حيث كان مركزاً للتأثير والإشعاع. لقد رفض الوكالة، كما رفض رتبة الاستحقاق ووسام الشرف وغيرها من أشكال التذليل المماثلة! فلقد كانت الأوسمة تكفيه، حتى إنه كان يقول:

- إن عدد الناس الذين يستحقون الاحترام ويحلمون بشهادة الشرف، يدعو للجنون.

لم يكن الحصول على لقب فارس وسام الشرف، يمثل لبازيل أية صعوبة تذكر:

فأفقد كان بازيل يعرف الباب الذى يطرقه، وإن قائمة التعيينات والترقيات لمرتين فى السنة كانت تجعله يحصل على الشكر الجزيل أو فى بعض الأحيان على هدايا ضخمة.

فى منتصف الخمسينيات، كان الحصول على خط تليفون أصعب من الحصول على جوقة الشرف. وفى هذا المجال، كان على بازيل التصرف وكان يعتنى بعلاقاته فى دائرة البريد فكان يتحاشى أن يطلب الوساطة من نفس الشخص قائلاً له "هذه المرة الأخيرة التى أكتب لك فيها... ولكن لا تنسى من فضلك أن تخبرنى برقم هاتفك...". وأما الطلبات الخاصة بالإعفاء من الخدمة العسكرية أثناء حرب الجزائر، فقد كانت أكثر حرجاً من غيرها، حيث لا ينبغى تعدد الطلبات فى هذا الصدد. فكان بازيل يكتفى بانتقاء بعض الطلبات لتقديمها إلى مكتب وزير الدفاع أو إلى الضباط الكبار الذين كان يعرفهم، وذلك حتى لا تحرق الشمس جبهته من الانتظار. لم يكن ذلك المجهود يكلل دائماً بالنجاح، ولكن إذا ما تحقق فهو يجلب له اعترافاً دائماً بالجميل من قبل أصحاب المصالح وعائلاتهم. أما المسائل الأقل أهمية، فقد كان ب ب يكتفى بذكر الاسم والعنوان كاتباً: "أنا من طرف بازيل باتركاني"، فهذه هى كلمة السر القيمة مثلها مثل "افتح يا سمس" التى كانت تفتح الكثير من الأبواب. وصل

الأمر إلى أن بعض المتطفلين كانوا يستخدمونها من تلقاء أنفسهم. وعندما كان يعلم بهذه الخدمات المسروقة، كان بازيل يرفع سماعة التليفون ليُدفع السارق ثمن جريمته؛ ما دام وُجد الغش بطل السحر، فهناك لا محالة مقايضة حيث كان يكتب له بازيل:

- صديقي العزيز يقال إنك قد استخدمت اسمي لتحصل على تخفيض من وكيل سيارات سيمكا، فهل لك أن ترد الجميل وتقدم لى خدمة صغيرة؟

لاحظت أن بازيل عندما يتلقى شكرًا لا يرد أبدًا قائلاً: "العفو" أو "لا داعي" أو "لا شكر على واجب" ولكنه كان يقول: "إن ذلك يسعدني". واليوم الذي عرفت فيه أن هذه الجملة ليست بالمجاملة، اتضح كل شيء أمامي. وقد أكد لي ذلك بنفسه أثناء جدال تطرق فيه إلى مناحي فلسفية، فقال:

- لا يوجد عمل مجانيًا، أيها الاقتصادى الكبير.

- إنك على الرغم من ذلك يا بازيل عندما تقدم خدمة...

فقاطعنى قائلاً:

- تقصد إذاً أنني بهذه الخدمة أتطلع دائماً إلى المصلحة!

فصرخت:

- المصلحة! لا أستطيع تصديق ذلك.

- إذاً لأشعر بالسعادة إذا أردت أن تقول ذلك.

فأعجبته هذه الكلمة ولكنه كان يفضل صيغة الجمع وهذا ما أدركته شيئاً فشيئاً، فعلى مدار الأسبوع كانت تتعدد دواعى سعادته

فهو يسعد عندما يكتشف وجهًا جديدًا وكأنه مكتشف هبط على مكان مجهول وهو يسعد عندما يلتقى بأحد معارفه القدامى أو يقوم بتقديم شخص لآخر أو يحل مشكلة ما أو يلتقى شكرًا وفي النهاية قال:

- إن العرفان بالجميل يعادل أشكال التقدير كافة.

وكان هناك طبيب قد أشاد " بالإيثار " لدى بازيل الذى أهدها ابتسامه تريح النفس وقال له:

- أتمنى ألا يكون ذلك بالشيء الخطير؛ وذلك لأننى فى الحقيقة لا أعرف معنى الكلمة، إلا إذا أردت أن تقول إنه عندما أقدم خدمة هنا أو هناك، فإن ذلك ينسينى مشاكل الصغيرة وأشعر بالرضا، حيث إن تقديم الخدمة لا يسينى ولا ينقص منى شيئاً.

وإذا اندهشت يوماً لرؤيته يضيع من وقته ربع ساعة مع رجل متطفل كان يرد عليّ:

- إن هذا مزاجى.

كان ذلك الرد مطابقاً للتعبير المصرى الذى كنا نسمعه كثيراً فى طفولتنا، وهو يعنى هذه طبيعتى أو ذوقى الخاص. فكلية مزاج تعبر عن شيء شخصى وخاص جداً لا يحتاج إلى شرح ولا يحتاج إلى إذن. إنه هوى، إيثار أو نوع من الحرية المسنولة.

بل إن كلمة مزاج تحوى أيضاً معنى العفوية والسرور والغبطة، وهى فى ذلك يمكن أن تشبهها بأقل الشبهات، كأن يرتشف

المرء على مهل لبناً باللوز بعد القيلولة، أو أن يتنزّه على كورنيش الإسكندرية عند غروب الشمس، أو أن يجلس في شرفة منزله في الحادية عشرة مساءً من شهر يونية عندما يغمرك نسيم مصر الجديدة في جو من السعادة.

يبدو أن كل موعد جديد كان يسعد بازيل: "نعم الأربعاء" بعد الظهر في الساعة الرابعة في ٥٣ مكرر شارع ريمون لوسوران مترو برنيتي سلم (د) آخر الساحة، نعم (د) مثل ديسكوفيل" أو دليكيسونس أو دوتيرونون.... كان حبه الدائم للكلمات يشعره بالتفرد وبسعادة التواصل مع الناس.

وشيئاً فشيئاً بدأ يتضح لى الطابع العبثي لكل ذلك، لقد كان بازيل مغامراً لا يحسب للأمر شيئاً ولا يتطلع إلى مستقبل؛ يحيا الحاضر تاركاً على الدوام نفسه لنزوات الهوى ومقادير الصدف. فكان كل لقاء جديد يشكل صفحة جديدة في حياته ويأذن بمغامرة جديدة، فحياته لم تكن إلا رواية تملؤها المغامرات.

وكان بازيل يكره شركة التأمين ضد المخاطر التي لم تكن تترك شيئاً للصدفة:

- على ألا يحدث شيء!

وبالفعل لا يحدث شيء وهذا ما يخلق السأم الكامل.

كانت ثقته بالآخر هي النهج الذي يتبعه، فهو دائما ما يراهن على المتحدث وهذا ليس من قبيل النقاء أو السذاجة ولكنه أسلوب حياة.

وعندما كان بازيل يرى شخصا يعرفه على الرصيف المقابل، كان لا يكتفى بصباح عابر؛ ولكنه يعبر الشارع ويمد يده مازحا ويطرح أسئلة وكان يبدو عليه الاهتمام والسرور والشوق، كل ذلك في شيء من التريث والسعادة الظاهرة.

وقد كانت سابين تتظاهر بالقلق وتقول:

- إن ابن عمك لا يستطيع العيش إلا من خلال الآخر فبدونه يشعر بالنقص.

كان هذا الآخر بمثابة النفس الذي يهب له الحياة، ليس بمعناه الحرفي من شهييق وزفير ولكن بمعناه المجازي الذي يتلخص في كونه نشاطا حيويًا دائما لا يتوقف؛ فهو بالنسبة لبازيل يشبه الأكسجين الباعث للحياة والذي لا تستقيم الحياة بدونه. وكان بازيل يصل به الأمر أحيانا إلى افتعال خلاف مع أناس لا يعرفهم فقط من أجل التواصل معهم.

لقد كان انجذابه الدائم للآخرين يجعله يدور في فلكهم وكأنه حسير أو أعسر، فهو لا يفهم شيئا عن العزلة الطوعية مهما كانت لها من دوافع نبيلة، حتى أن حياة الناسك أو الزاهد كانت تمثل له لغزا

من الدرجة الأولى بل أفسى أنواع العقاب الذاتى. فقد كان يفضل تحمل الآلام فى صحبة جميلة عن التمتع بأى شيء وحده.

لم يكن يستطيع أن يتناول الغذاء بمفرده، أو أن يركب الدراجة المنزلية الثابتة، بينما كانت تسعده الكرة الطائرة. وقد علق روجيه مارينيللى على بازيل مازحا:

- فى لعبة التنس كان ابن عمك لا يلعب سوى التنس الثنائى.

وإذا كان ب ب معتادًا على الذهاب إلى رستوران سان جرمان دى بريه حيثما قابلنى المرة الأولى، فقد كان يتردد أيضًا على ثمانية أو عشرة مطاعم أخرى. وبخلاف ما توحى به مفكرة العناوين التى يمتلكها بازيل، فما يهيمه ليست "العلاقات" بل التواصل الإنسانى.

كان التليفون يرن، فرفع السماعه ليقول المتحدث: "خبر سعيد يا سيد باتركانى"، لقد وجدت ما كنت تبحث عنه.... "كان ب ب يشكر بحرارة دون أن يضيف شيئًا أو يعد بشيء فى المقابل. وكانت نبرة الرضا فى صوت محدثه تبعث فيه سعادة تعادل سعادته بالخبر السار الذى زف إليه.

فقد كان يقول:

- الناس يتعلقون بى وذلك لأننى أقدم لهم خدمات، ولكننى أتعلق بهم أكثر عندما أتلقى منهم خدمة.

ويبدو أن السيد روجيه مارينيللي قد فهم كل شيء، فخلصه

بقوله:

- إن بازيل يشعر بقدر كبير من السعادة عندما يعطى

للآخرين الفرصة لأن يسعدوه.

بدت ساببن باكية وقد سالت دموعها لتحمل معها كل ما كان
يزين عينيها لوزية الشكل، وقالت ناحبة:

- لقد انتهى كل شيء بيني وبين بازيل!

فشعرت بأمل كبير يملأني على غير انتظار وسألتها:

- وكيف حدث ذلك؟

فردت بانفعال وهي تجفف دموعها:

- سأشرح لك ذلك فيما بعد.

لم تدرك ساببن لماذا أنهى ابن عمى علاقتهما فى شيء
من اللطف والحزم معاً، فهى لم تتوافق قط مع أحد آخر مثلما
كانت تتوافق معه وكانت ترى أن عليها أن تستوضح الأمر من
جوانبه كافة:

لقد كانت على يقين أن بازيل لم يقع فى غرام امرأة أخرى،
لدرجة أنها كانت تظن أنه كان مضطراً لإنهاء علاقتهما. فقلت
والشوق يملأني لأضمها إلى صدرى:

- هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك؟

- نعم حاول أن تعرف ما الذى يدور فى رأسه ولا تتردد حينها فى الاتصال بى، أرجوك!

لقد صرت الآن ناقماً على بازيل، ونصبت نفسى مدافعاً عن سابين التى لم تطلب منى شيئاً. فما جدوى إسداء خدمات للعالم بأسره إذا ما كان المرء يبكى أقرب الناس إليه؟

لقد كان ب ب متواضعاً فى مظهره العام، وبصراحة كنت أجد نفسى أفضل منه بكثير. فأى تأثير سحرى لديه يجعله يفتن جميلات مثل سابين ليفنستين، ولورانس مويرجيه أو زينة دكاش، واللائى بإشارة واحدة منهن، يجدن عدداً من العشاق؟ ولماذا كان يتركهن فيما بعد؟

ومن جديد بدأ يتجسد أمامه الشر الكامن فى ب ب، ألم يكن صاحب المزاج هذا هو الذى يجد متعته فى تعذيب الآخرين ومحاولة الهيمنة عليهم؟ وإننى لأتذكر أن أحداً من زملائى فى الفصل فى هليوبوليس كان يتلذذ بتعذيب النمل فى الفسحة؛ فكان يمسك بالسكين ليقطع النملة إلى نصفين وكان يقول:

هذا هو مزاجى.

تستحق سابين أن أثار لها، وأتضامن معها، فلن ألبى دعوة بازيل المقبلة وإلا سأبوح له بفعلته هذى فقد يسمعنى... حاولت كثيراً التفكير فى الأمر ولكن دون جدوى؛ وفى الحقيقة كنت على يقين من

أنه كان عادلاً معها إلا أن هناك شيئاً ما يخفى علىّ فى علاقاته العاطفية.

لا أحد كان يعرف بازيل أكثر من السيد روجيه مارينيللى فقد حاول أن يوضح لسابين موقف صديقه قائلاً:

- لا يستطيع بازيل أن يرتبط إلى الأبد بامرأة واحدة فلديه قناعة أن ذلك يحُط من قدره فى نظر الأخريات.

وفى الحقيقة لم أفهم حينها معنى هذه الملاحظة.

لقد كان السيد مارينيللى أحد أعضاء الدائرة الأولى الخاصة بأولى الثقة والأصدقاء المقربين الذين كان بازيل يحب أن يقضى معهم وقتاً أثناء الإجازات الطويلة أو الأسبوعية أو فى المساء لاحتساء الشراب. فهذه كانت دائرة الأصدقاء الذين يعدون على الأصابع، فى حين أن بازيل كان يقيم علاقات حميمة مع عدد لا نهائى من الأشخاص. وقد اكتشفت أن تقديم الخدمات يحقق نوعاً من الارتباط وليس بالضرورة صداقات وكذلك أدركت أن ابن عمى كان يرغب فى أن يحب لذاته وليس للخدمات التى كان يقدمها.

أما أصدقاء الطفولة فقد كانوا متفرقين فى أنحاء العالم كافة؛ ولذا فإن الدائرة الثانية لم تكن لتكتمل على الإطلاق. وفى اللقاءات المكونة من ثلاثة أصدقاء إلى أربعة والمليئة بالضجة والفرحة والحنين، كان هؤلاء الأصدقاء يضحكون حتى البكاء وذلك وفقاً

للتعبير المصرى الفرنسى. وفى الحقيقة كم كنت أحب التسلسل بينهم لأسمعهم وهم يرددون بعض الذكريات التى لم تكن تخصنى، لكنها كانت تؤثر فى تأثيراً كبيراً. كم كانت جميلة وغريبة مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات حين كانت فى منأى عن مظاهر الجنون- التى كانت تجتاح أوروبا- فهى مصر بأسيادها ذوى الطرابيش وحسناواتها اللاتى يتحدثن عدة لغات، وباحتفالاتها وصالوناتها الأدبية وشواطئها التى لم تطأها الأرجل، والممتدة على أطراف حقول التين! ربما كانوا يجلونها بعض الشيء ولكن لا شك فى أن جيلهم كان أقل أكثرأثاً وأكثر ورعاً من جيلنا.

ومن بين أصدقاء بازيل، أذكر أيضاً جون وجان الزوجين اللذين كانا يعيشان فى شارع المعبد؛ وكانا يريان فيه الابن والأخ والأب...

فقد استقبلاه فى بيتهما فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ وهو العام الذى وصل فيه إلى باريس، وبعد ست دقائق من المناقشة التى دارت بين بازيل وجون أورانج، دعاه الأخير قائلاً:

- هل أنت مرتبط يوم الأحد القادم؟ أترغب فى تناول الغداء معنا؟

إن الطابع التلقائى لهذه الدعوة أعجب بازيل فذهب فى اليوم المحدد ووجد نفسه فى بيت مظلم، بالى الأثاث يدفعه خشب متقد

وضحكات أطفال. كانت جان تناهز الأربعين من عمرها وكان قوامها يدل على أنها أنجبت عددا من الأطفال هذا إلى جانب ما تعرضت له من عمليات إجهاض تصل إلى مرتين أو ثلاث، ولكن وجهها كان يشع نوراً، أما المقاتل القديم جون فكان يدير ورشة للوقود تابعة للشركة الوطنية للسكك الحديدية، وقد تعارف هو وزوجته أثناء الحركة الكاثوليكية العمالية.

كان بازيل يذهب إلى عائلة أورانج ليتناول الغداء مرة واحدة كل شهرين تقريباً وقلما كان يصطحب معه إحدى رفيقاته، وذلك خوفاً من أن يصدم جون وجان اللذين لا يتخيلان الحب إلا في إطار الزواج الأبدي. لكنهما كانا يتجاوزان عن ذلك ويرحبان كل الترحيب برفيقتة فهما على استعداد أن يتقبلا أي شيء من بازيل.

قابلت في شارع ريمون لوسوران شخصاً يدعى لوكو بعد فترة وجيزة من انفصال سابين وبازيل، وذلك ليس بالمعنى الحقيقي "للمقابلة"؛ فبينما كنت أدخل المبنى، كان هذا الأهوج ينزل درج الدور الأول وكانت سرعته فائقة كادت أن تطيح بي أرضاً.

فقلت له بعد أن أخذت ضربة في جنبي:

- يجب عليك أن تعتذر!

فرد وهو يركب الموتوسيكل قبلما يرحل تاركاً سحابة كثيفة من الدخان قائلاً:

- اخرس!

لقد أثار لوكو حفيظتي، ولكن كان يجب على الاحتراس عندما أتحدث عنه أمام بازيل. فمنذ ستة وعشرين عاماً، كان هذا الطفل ابناً لمؤسسة الأحداث ولم يعيش بعد حياة البالغين، على الرغم من مساعدات كفيhle الذي أوجد له عددًا من الوظائف المتتالية، لأنه لم يكن لينتظم في أى وظيفة أكثر من عدة أسابيع، وكان صاحب العمل يقول وهو يتهدد:

- لوكو هذا الذى أتيت به يعمل يوماً واحداً كل ثلاثة أيام وذلك إذا افترضنا أصلاً أنه يعمل.

كان لوكو متقلب المزاج، عديم المهارة وسريع الغضب، لذا لم يكن ليقبل أحد أبداً توظيفه لديه دون دعم قوى كهذا. وظل الأمل يحدو بـ ب لبعض الوقت فى أن يصبح هذا الهامشى شيئاً ما خارج البلاد. ولكن المحاولات المتعددة فى "أوتر تار" وتايلاند وأندونيسيا قد باءت بالفشل.

كان لوكو يظهر بصورة منتظمة فى شارع ريمون لوسوران ليعلن أنه قد ترك العمل الذى يعتبره لا يحتمل. وكان الحزن الذى يقرأه فى عين بازيل يعادل أشد أنواع التوبيخ فلا يسعه إلا أن يخفض رأسه ليجعل العاصفة تمر. فبازيل بالنسبة له شمس لا بد أن تسطع فى النهاية.

واليوم الذى أخطأت فيه، مثلى فى ذلك مثل كثيرين غيرى - وأعربت عن دهشتى إزاء صبره عليه أنبنى ابن عمى قائلاً:

- أتود أن أترك لوكو بعد كل هذه السنين؟ أتركه لمن؟ بعد كل هذه الأعوام؟ من الذى سيهتم به؟ من السهل التوصية على أشخاص يستحقون التوصية. فذلك مفيد على جميع المستويات، لأنه سيعود بالمنفعة على كل حال، وسيبدي لك صاحب العمل الامتنان، وسيشكرك العنصر اللامع الذى قصرت عليه الطريق. وخاصة أنه

سيكون قد أحرز تقدماً سريعاً. إننا نساعد بصدر رحب من هم ليسوا في أمس الحاجة للمساعدة، بل ويستطيعون حل مشاكلهم على أية حال ولكن لوكو لا يستطيع؟

ومن جانب آخر كان بازيل يتوخى الحذر من أن تسير علاقته مع لوكو في اتجاه واحد فكان يحاول طلب مشورته بصورة منتظمة قائلاً:

- لوكو أحتاج إلى رأيك في شيء ما، إن الراديو لا ينطق وينبغي لي أن أشتري واحداً آخر.

فأى ماركة تتصحنى بها؟ هل تستطيع أن تسأل لي؟

لقد كان بريق الفرع الذي يراه بازيل في عيون لوكو ينسيه كل المآسى الماضية والآتية.

ووفقاً لما أقره طبيب نفسي، فإن لوكو يعاني من ازدواج في الشخصية. فقد أقر قائلاً:

- إن عجزه عن التصرف يرجع إلى طبيعة مترددة في كل المجالات، فهو يشعر بمشاعر متناقضة تترجم أنياً بمواقف متعارضة، حيث إنه يحب ويكره ويرغب في العمل ويرفضه ويؤكد الشيء وينفيه في الوقت نفسه.

فسأل بازيل الطبيب:

- هل هذا ما يطلق عليه انفصام الشخصية؟

- لا، ليس بالتحديد. ولكن يبدو أن هذا الصبي قد وجد نفسه

معك.

إن تصالح لوكو مع نفسه أمر مبهم يصعب على بازيل فهمه

حتى إنه تتمم قائلاً:

- هذا ما أصابني من جراء محادثتي مع الأطباء النفسيين!

على أى حال، لم يكن من الممكن أن يدوم هذا الوضع. فينبغي

لهذا الصبي أن يكف عن الاعتماد على بازيل ويطير هو بجناحيه.

ولكن كيف يدفعه للحركة؟ كان دائماً ما يتأني في البحث عن شمعة

صغيرة ليضيئها وهو على يقين من أنها لن تُطفأ.

في مساء يوم السبت، قبل وصولي إلى باريس بعدة سنوات

عندما كان بازيل عائداً إلى منزله، نادته مجموعة من الشباب الذين

كانوا يرتدون قمصاناً سوداء، وكانت محركات الموتوسيكلات التي

يقودونها تحدث ضجيجاً في ميدان بور روابال وقالوا له:

- ما هذا يا أستاذ؟ أليست هذه الربطة محبوكة جداً؟

إن شخصاً آخر غير بازيل كان سيتركهم ويسرع الخطى.

ولكن بازيل حاول أن يبتسم وقال:

- فيما تضايقت ربطة عنقي؟

فقال واحد منهم وهو يمسك بظهر سترته:

- تخيل أنها تضايقتنا! لا تستطيع أن تتخيل كم تضايقتنا ربطة

عنقك!

فهم ب ب أن يدفعه بتلقائية فصرخ شاب ذو شعر أحمر:

- انتظر.. انتظر! أتعدي على زميلي؟ سأريك ماذا سأفعل

بالذين يرتدون ربطة العنق ويعتدون على زملائي!

وبحركة عنيفة فتح مدية ليوقف بازيل واضعا المدية أسفل أنفه

حيث أمال السلاح قليلاً نحو خده. لقد كان هذا السلاح يلمع بسبب

إضاءة عامود النور وأخذ يوخز خده قائلاً:

- ألا تحب زميلي؟ رد أيها الجبان! ألا تحبه؟

كان ب ب يريد أن يهدئه؛ ولكن الكلام لم يكن ليخرج من

فمه، حيث إنه كان يشعر بطرف السلاح على جلده. فقال الشاب ذو

الشعر الأحمر:

- أتود ندبة لجرح عميق؟ ما رأى الأستاذ في ندبة جميلة؟

وفجأة ضرب ربطة العنق وقطعها بالسكين فرحب الجميع

بفعلته هذى عبر ضحكات ساخرة.

فكّ ابن عمى وهو يرتعش ما تبقى له من رابطة العنق
ووضعها فى جيبه وكاد أن يبتعد لولا أن قام أصغر شاب فيهم والذي
كان يقرض أظافره بعصية وناداه ليسأله بعنف:

- ولم لا تكون "بابيون"؟ فالفرشات تطير وتسرق الملابس
مثل الرهبان. إن الرداء يصنع الراهب والرهبان يرتكبون أعمالاً
قذرة...

وفى هذه الانطلاقة غير المتسقة اختلط كل شيء: البدلة
الكروازيه مع أولئك الذين يقلبون ستراتهم، الأحذية ذات الكعب مع
أولئك الذين يمسحون الجوخ... والياقة المقلوبة مع الفاسدين الذين
يستغفلون الشعب...

وبعد ذلك، استدار زملاؤه غير مكترئين لرجل آخر مار، كل
ما اقترفه من ذنب أنه كان يرتدى قبعة.

بدأ روع بازيل يهدأ قليلاً، وبدأ يستمع لهذا الولد ذى القصة
المصفرة والمتطايرة والذي كان يصفى حسابات مع رجل هزيل وقال
بعدهما فرغ من صراخه: أنا اسمى بازيل وأنت ما اسمك؟

فكان يدعى لوكو.

فى العام الجامعى الثانى كنت أتمنى أن أنتقل إلى مسكن آخر
يكون أكثر قريباً من الكلية. وأخذت أبحث عنه لمدة أسبوع. وعندما
أبلغت ب ب عن عنوانى الجديد قال لى بنبرة معاتبة:

- إنك لم تطلب منى شيئاً!

فقلت:

- لم أرد أن أزعجك.

فهز رأسه حزيناً وقال:

- لقد أحببته كلامك. أزعجك ... وهل فكرت برهة فى
معنى كلمة أزعجك؟ اشرح لى إذا فيما كنت ستزعجنى...! إنك
تذكرنى بجونيفاف.

فتضايقت أنه شبهنى بصاحبة صالون الشاى ونظرت إليه
نظرة متسائلة، فقال:

- نعم، إن جونيفاف لن تسامحنى على دخولى فى حياتها،
فهى امرأة منظمة تحب الأشياء - وكذلك الرجال - أن تكون فى
أماكنها الصحيحة.

- الرجال؟

- أعتقد أنها لا تشعر حقاً بالراحة إلا مع الموردين وصاندى

النساء.

إزعاج... لقد كان بازيل يتجراً فى الطلب، حيث كان ذلك من الأشياء النادرة التى قد تعلمها من حصص الدين المسيحى فى طفولته: " اطلب وستأخذ؛ اقرع وسيفتح لك... "، ألم تكن "رن وادخل" المكتوبة فى شارع ريمون لوسوران مستوحاة من هذه الكلمات؟

كان بازيل يطرق الأبواب بإصرار، خاصة عندما تكون الخدمة لا تخصه، فلم يكن يشعر بالضعف أو الحرج الذى يشعر به صاحب الحاجة. وإذا ما أغضبه رفض غير مبرر، فلم يكن ذلك ليغير شيئاً فى مجرى حياته.

واكتشفت رويدا رويدا أنه كان يشكل قلب شبكة شاسعة الأبعاد "فنفوذه العريض" كان يفوق كل ما كنت أتصوره. فقد كان يستطيع الاتصال بوزير ويستقبله نهاراً أحد أساقفة باريس أو ينجح فى إدخال ابن عامل أحسن مدرسة سويسرية.

إن المثل يقول "كل إناء ينضح بما فيه" ولكن ب ب كان يستطيع أن يعطى أضعاف ما يملك، بحيث إنه يأخذ من أناس ليعطى آخرين. ألم يكن النظام الذى يتبعه يضاعف مستوى التبادل بين شخصين إلى ما لا نهاية؟

وقد علق السيد روجيه مارينللى قائلاً:

- إن العالم الباريسى الصغير يتميز بسياسة الأخذ والعطاء، فمن يقدم السبت سيجد الأحد... أما ابن عمك فهو لا يمتلك شيئاً ليبيعه، ولكنه يعمل وسيطاً دون نسبة. لقد كان بازيل يقبل بعض الهدايا على الرغم من أنه كان يرى فيها كثيراً من المبالغة، وخاصة تلك التى تأتية فى الكريسماس ورأس السنة؛ فقد كانت صناديق الشمبانيا تأتية على الرغم من أنها لم تكن بأسعار مخفضة. ولأنه لم يكن ليقدر على رفض هذه الهدايا فكان يقوم بتوزيعها على من حوله فهناك أكثر من حارس مبنى فى شارع جيه لوساك قد شرب الشمبانيا فى صحته!

وكان أيضا يتلقى دعوات طوال العام للعرض الأول فى المسرح التقليدى والسينما وكذلك مسرح المنوعات، وهذه النزهات الباريسية كانت تسره حيث كان دائماً فى صحبة صديقة أو صديق وأحياناً أحد أبنائه الكثيرين فى المعمودية، والذين كان يرغب فى إسعادهم. وقد استمتعت أنا شخصياً بهذه الدعوات عدداً لا بأس به من المرات وكنت دائماً ما أتعجب من مجموع الأشخاص الذين يهرعون إليه ليقبلوه أو يصافحوه بحرارة.

كان بازيل باتركانى يظهر على أغلفة مجلة " جور دو فرانس" وسط بعض النجوم، ولكن اسمه لم يظهر قط بين الأسماء،

حيث كان يشار إليه على أنه صديق. أما بالنسبة للجمهور العريض فقد كان بائركاني مجنوناً حتى إن مؤسسة "هو إز هو" كانت تجهله. فأى مكانة وأى وضع يمكن أن نعطيه لكاتب محام يعمل موظفاً لنصف دوام؟

فى أحد أيام الأربعاء من شهر نوفمبر، قرر بازيل أن يتمتع بفترة ما بعد الظهر، ولذلك لم يحدد أى موعد فى شارع ريمون لوسوران وأخذ يجوب المكان أمام كنيسة نوتردام للتمتع بالتزّه فى الشمس وتبادل الحديث مع أصحاب الكتب الذين كان يعرف عددا منهم، حيث كان يسألهم بصورة منتظمة عن بعض الكتب ليس لنفسه - لأنه نادرا ما كان يقرأ - بل لأصدقاء يبحثون عن كتب نادرة أو بالية.

كانت روافد نهر السين الضيقة التى تحتضن جزيرة سيّتيه تذكره، على النقيض، بسواعد النيل الشاسعة. فمن منزل أولاد العم دابور فى الزمالك، كانت الضفة الأخرى للنهر تبدو وكأنها على بعد أميال، فلم تكن تميز وجوه المجدفين فى وسط النهر وهم ينتظرون فى أناة الهواء ليملاً أشرعة فلوكاتهم. فبازيل الذى كان يعشق كلاً من باريس والقاهرة، كان يشعر وكأنه زوج لامرأتين.

فقد كان يقول:

- إن لى قلبا فى كلتا المدينتين...

واتجه نحو السلم ليهبط إلى حافة النهر حيث كانت خالية من المارة في هذا الوقت من بعد الظهر وبعدما عبر كوبرى تورنال، سمع جرساً موسيقياً، فإذ به يتوقف على بعد عدة خطوات من شابة رفيعة ذات شعر قصير تلعب بالناي المستعرض وهي تنظر إلى نهر السين، فلم تنظر إليه وذلك لأن تركيزها كان ينصب على آلتها، وحتى عندما انتهت من عزف مقطوعتها الموسيقية ظلت جامدة؛ عيناها سابحتان في المياه الرمادية كأنها وحيدة في هذا العالم.

و ليقول شيئاً، سألتها بازيل:

- أهذا ناي؟

- لا بل مكواة.

فابتسم محاولاً أن يتدارك نفسه قائلاً:

- إنك تعزفين جيداً ولكن للأسف إنني لا أفهم شيئاً عن الموسيقى.

في هذه المرة استدارت نحوه ونظرت له نظرة ساخرة وقالت:

- من الصعب أن تبدى مجاملة أكثر إقناعاً من ذلك.

فضحك بازيل ملء قلبه وقال:

- آسف لأنني قاطعتك ولم أقل سوى سخافات، سأتركك

هادئة.

فقالت وهى تستعد للرحيل:

- وأنا التى كنت أظن أنك ستدعوننى لتناول فنجان من القهوة.

فاقترح بازيل أن يذهباً إلى مكان ما على مقربة منهم، يقدم بنا برازيلنا ممتازاً فقالت:

- إننى فى الحقيقة أكره القهوة هل فى متناول يدك أن تقدم شيئاً بالياسمين؟

فى متناول يدك.... كان من الأخرى بها أن تقول "من جعبتك" كما لو كانت استطاعت أن تعرف كل شيء عن بازيل.

وبطبيعة الحال كان بازيل يعرف رجلاً صينيًا على الجانب الآخر من ميدان سان ميشيل حيث كان يتوافر لديه أكثر أنواع الشاى تنوعاً فى باريس.

لقد استطاعت مانويلا أن تستولى عليه بحق، ولكنه كان فى حيرة من أمره، إذ إنه عادة ما كان هو الذى يجذب ويضحك السيدات بإجاباته، أما مانويلا فقد سيطرت عليه وبسطت هيمنتها منذ اللحظة الأولى.

إن ارتداءها للثى شيرت الأبيض والبنطلون الجينز الكالـح قد جعل بازيل يعتقد أنها طالبة، ولكنه عرف لاحقاً بعدما شربت برادين من شاى اليونان أنها فى الرابعة والعشرين من عمرها وأنها كانت فى أوركسترا لامورو.

وقرابة الساعة السابعة مساءً، تركا الرجل الصينى ليتناولوا
البيتزا فى محل يقع على الجانب الآخر من الحى اللاتينى، وحتى
منتصف الليل تقريبا كانا لا يزالان يتجاذبان أطراف الحديث فى كل
شيء ولا شيء على حد سواء، فإذا بمانويلا تقول:

- كلمة مزاج هذه حقا غريبة، فكيف لها أن تعنى فى ذات
الوقت طبعاً وذوقاً وسروراً وهوى وغبطة.

فرد بازيل:

- بل إنها تعنى أيضاً نوعاً من المزج. المزج البارع، بل
المزج التام.

فنظرت إليه صامته للحظات وهى تمسك بكأسها حيث تركتها
كلمة مزاج حالمة.

وبعد يومين، ذهبت إليه فى شقة شارع جيه لوساك ولم يكن
معها سوى حقيبة صغيرة وجراب الناي كان يتأرجح على كتفها.

وفى اليوم التالى فى الصباح، تركت المنزل ومعها أغراضها
ولم تترك حتى فرشاة الأسنان.

عادة ما كان بازيل يحسن التصرف ليحمى، فى شيء من
اللياقة، بيته من أن يقمن فيه النساء، أما مع مانويلا فلم يكن ليخشى
أن تستقر عنده، فهذه الفتاة الهوائية دخلت حياته خلصة وكأنها ملاك.

حتى ذلك الحين، كنت أحسد بازيل بشدة على نزواته النسائية، حتى إننى كنت قد وقعت فى غرام لورانس، ثم ساببن بعد ما تصورته من أوهام - شأنى فى ذلك شأن كثيرين - حول الجميلة زينة دكاش. ولكن هنا كان الأمر مختلفا، فلم أكن أفهم مطلقا ما الذى وجده بازيل فى هذه الهمجية التى يصعب الاقتراب منها، كما أننى أرى أنها تصغره بأعوام عديدة.

ولم أرد الاعتراف بأننى كنت أشعر بالغيرة منها وكذلك من لوكو، فكنت أعتب على كليهما لا شعوريا لأنهما يستحوذان على بازيل. ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتنازل عن حريته لأى إنسان وهذا ما أدركته مانويلا على الفور وربما هو الذى أعطاهما مثل هذه القوة الكبيرة. وفى مساء أحد أيام شهر أكتوبر ذهبنا لنسمعها فى قاعة جافو، فلم نكد نعرف عليها وهى ترتدى القميص الأبيض والنتورة السوداء. إلا أنها كانت تتميز عن غيرها من الموسيقيات بشعرها القصير ووجهها الخالى من الزينة. فهى لا تتردد فى التعبير عن فكرها بطريقة مباشرة ومتكاملة وهى تترفع عن أى دلال، مهما كان له من أثر على بازيل فهى تجهل كل مظهر من مظاهر التصنع.

وقد علق بازيل عليها مازحا:

- إن مانويلا لا تجيد العزف إلا على الناي المستعرض.

لقد ورث ب ب فن المرونة من أجداده. وعلى الرغم من انتمائه الكامل للبلد الذي تنبأه، فإنه لم يستطع التأقلم مع فرنسا المزدوجة التي تبحث عن التماثل المخيب للأمال وتتناقض فيها كل الأطراف: الشمال والجنوب، اليسار واليمين، العام والخاص، العلماني والكاثوليكي... فهو مجتمع يتسم بصراع دائم وصلابة فطرية تجعله في صدام مع الكلمات حتى أن بازيل كان يقول:

- إن الكلمات كالأمواج يجب معرفة كيفية التعامل معها.

منذ عشرين جيلاً مضت في منطقة نورماندى، كان يوجد كل من الجزائر الذى يتعامل معه وكذلك صاحبة المخبز، ولكنهما كانا يأتیان من كوكبين مختلفين، حيث إن أحدهما ينتمى إلى مذهب البوجاديه والآخر راديكالى اشتراكى؛ معا كانا يثيران الحيطه لدى الزبائن فمن الأفضل ألا يظهر أحد أمام قرمة الجزائر وفى يده رغيف "باجيت"....

فبازيل الذى يأتى من بيئة متعددة الأجناس لا يجمع أهلها دين واحد أو أصل قومى واحد، يصعب عليه فهم هؤلاء الفرنسيين، على الرغم من التشابه الكبير الذى يجمع بينهم، فهم يتضاربون فيما بينهم تضارباً كبيراً. فهل يكون الاختلاف ضماناً للتواد، بينما يصبح التشابه الدقيق سبباً فى الحصول على متعة المواجهة؟

إن التسامح - قطعاً المبالغ فيه - الذى يتحلى به بازيل كان يثير غضب مانويلا. هكذا كان بازيل، فهو قادر على فهم شخصية الجبان والكذاب واللص وأكثر الأزواج بشاعة، أو أكثر العنصريين ابتداءً. وكان بفطرته يحسن الظن بالناس وينظر إلى جوانبهم المضيئة.

أو كما كان يقول:

- الجانب المزهر.

كما لو كان يجد فى كل واحد منهم جانباً ما من نفسه.

لم يكن بازيل متعصباً إلا مع غير المتسامحين، وأذكر فى هذا المقام المشهد الشهير الذى وقع فى مقهى الشانزليزيه، حيث كان كل العاملين يعرفونه هناك، وقد أعطى موعداً لمستشار سفارة أمريكا الجنوبية الذى أراد أن يقابله سرّاً.

وعند بدء الحديث، سأل الدبلوماسى بازيل إذا كان يستطيع أن يبحث له عن فتاتين من الفتيات العذارى وليس من بنات الليل، وذلك لإنعاش الزيارة المقبلة لرئيسه فى باريس فذهل بازيل ولكنه نجح فى أن يسيطر على غضبه، إذ بدأ حديثه بالثناء على المستشار لهذه الثقة ثم علا صوته قائلاً:

- ولكن ربما يعشق رئيسك أيضاً الغلمان الصغار؟

فتنبه الزبائن فى الطاولة المجاورة منصتين. وأوضح بازيل
حديثه قائلاً:

- إننى أذكر لك ذلك لأن مجموعة من الصبيان السود الصغار
قد وصلوا لتوهم وهم ممتازون، وسترى ذلك بنفسك. ويوجد بالطبع
أيضاً الصبيان أصحاب البشرة الشقراء ولكنهم أعلى ثمناً.

فنظر الدبلوماسى حوله بقلق شديد فقال بازيل:

- اطمئن فإن وزارة الخارجية الفرنسية لن تعرف عن الأمر
شيئاً، وأعدك ألا أبوح بأى شيء لأصدقائى الصحفيين. سيأتى رئيسك
يوم الاثنين الموافق ١٥، فما زال لدينا الوقت الكافى، إذا عذراوان
وعدد من الصبيان السود الصغار.. آه أقلت لى كم صبياً أحضر لك؟
وقل لى أيضاً إذا ما كان ينبغى لى إحضارهم فى محل إقامة السفير
فى ميدان فوش أليس كذلك؟ أم فى فندق ما...

فاصفر وجه المستشار ونهض ليرحل، فإذ ببازيل يمسك به
ويقول نذل المقهى الذين كانوا يتابعون المشهد مبتسمين:

- الحساب على السيد!

وفى ظل صيحات تعجب عدد من الزبائن، ألقى المستشار
ورقة بنكنوت كبيرة وانصرف دون أن ينتظر الباقي.

- ربنا يعوض عليك.

تلك هي الكلمات التي قالها الشحاذ لعازفة الناي التي وضعت له نقودا في يده وأغاضها ما قال وتعجبت، بينما كنا نجلس في المقهى حيث قالت:

- ما دَخَلَ الرب في ذلك؟

فرد بازيل مبتسما:

- إن كنت تعيشين في مصر لما سألتى هذا السؤال، فهناك الشحاذون أكثر إلحاحًا وربما أيضا إيمانا، حيث إنهم يدعون لك خلال دقيقة كاملة بأن تحل عليك بركة الله.

وذكرت مانويلا فيما تلا لها من حديث تدريبات الأدب اللغائية التي تعلمتها في طفولتها "ماذا يقال"، شكرا، و"من نشكر؟" فوجدتها لطيفة أكثر مما كنت أتخيل.

و أضاف ب ب قائلا:

- إن بنات عمى لا يقلن شكرا قط.

وحكى لنا ما كان يحدث أثناء زيارته السنوية للأخوات دبور فيما يسمى بواجبات "عيد القيامة". وعلى الرغم من المساعي الدعوية (للخطابات)، فلم يقترب أى عريس من إحدى هؤلاء الفتيات القبيحات الست اللاتي يعشن عوانس فى منزل كبير بالزمالك على شاطئ النيل. ولاستقبال العائلة كانت الفتيات تنتظمن فى صف واحد يشبه صفوف الشرف، وذلك فى الممر الضيق فإذا دخل الضيف وفى يده هدية صغيرة يستقبلنه بتهنيدات ست، وفى شيء من اللوم يقلن له "ما يصحش". وكل عام كنت أراهن مع أولاد عمى أنه عندما أصل إلى الأخت الصغرى سأهمس لها قائلاً "يصح" ولكن دائماً ما كانت عيني تلتقى بعين مدعو آخر فننفجر فى الضحك...

فأردفت مانويلا قائلة:

- هذا ما كان يحدث عندنا فى عيد الميلاد، حيث كنا نذهب على الدوام لعمنا العجوز، القاطن فى مدينة مانوسك، وذلك لنقدم له زجاجة من شراب النبيذ المصنوع فى منطقة تسمى أرمانياك، ودائماً ما كان يقول لنا بابتسامة كبيرة "أنتم تدلوننى!". وعند رؤية أسنانه السوداء المكشوفة الجذور، كنا نعتقد أننا ارتكبنا خطأ فادحاً.

ثم بدأت مناقشة حول صيغ الشكر المختلفة فقال ب ب:

- إن ما يهم ليست الكلمات، ولكن ما وراء الكلمات؛ فالشكر الحقيقى يتطلب الكرم.

فى الحقيقة لم يكن يوجد من هو أصلح من ب ب لكى يتحدث
عن مثل ذلك الأمر، وذلك لأنه على مدار سنوات كان يتردد على
أختين توءمين تدعيان جراتيتود وانجراتيتود - أى عرفان ونكران-
اللتين كانتا تتفننان فى إثارة الحيرة بين الناس.

ومن بين المنتفعين من خدمات بازيل، كان هناك أناس
يتصرفون بفضافة بالغة فيحتجون باندفاع بل يهيجون ويموجون. ولم
يكن كل ذلك كافيا وكذلك لم يكن ليمر سريعا... إذ إن الحصول على
شيء مجانا كان يحثهم على طلب خدمة أخرى على الفور، كما لو
كان ذلك حقا مكتسبا لهم.

ففى إحدى المرات أخذ أحد المقاولين من بلدة مودون يتحسر
فى إحباط شديد فى التأليفون بعدما فاتته فرصة شراء سيارة مرسيديس
مستعملة وهو يقول لبازيل:

- وأنا الذى اعتقدت أنى يمكنى أن أثق بك!

فندم بازيل الذى كان قد تعرف على هذا الرجل البغيض فى
حفلة ساهرة، حيث إنه قد قال له:

- سيارة ٦ سيليندر، نعم فى إمكانى أن أوجدها لك.

وحينذاك، كان ب ب يجهل أن صاحب الجراج القائم فى
الحى الخامس عشر الذى كان معتمدا عليه، قد باع السيارة المطلوبة.

فهل يترك المقاول؟ إن نوعاً من الشهامة - أو ربما ما تبقى لديه من بطولة شرقية كان يحثه على طرق جميع الأبواب من أجل الحصول على سيارة مرسيدس مشابهة فهو متأكد أنه سيعثر عليها في مكان ما في تولوز أو مودان أو في ضاحية روبيه...

كان أكثر ما يحبط بازيل هؤلاء المدينون المتناسون؛ فقد مسحوا من ذاكرتهم الخدمات التي تلقوها. وإننى لأتذكر ذلك المطرب الذى كان يتفاخر بصوت عال أنه قد اقتحم باب مؤسسة إنتاج كبيرة، دون أن يذكر أن بازيل قد تدخل ثلاث مرات للحصول على الموعد الذى من خلاله أتاحت له فرصة اختبار صوته ثم تسجيل شريطه المعروف. وهناك مدينون آخرون أكثر وقاحة، حيث إنهم كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفونه، فنظراتهم الفارغة من أى مضمون كانت تؤلمه أشد إيلام وتشعره بأنه لم يعد موجوداً فكان يتمتم قائلاً:

- لا يهمنى نكران الجميل، إذا اقتضى الأمر ذلك ولكن ما يعنينى على الأقل هو أن يعرفنى الناس عندما يروننى فى الشارع.

كان هناك آخرون يجدون ألف حجة حتى لا يردوا المعروف الذى أسدى إليهم. وكان ب ب لا يبالي ويقول:

- لا بد وأن يجلب تقديم الخدمة السرور للإنسان وإلا فلا داعى له.

وكان يقوم كارهاً بشطب اسم الجاحد من مفكرة تليفونه، حيث إن هذه الخدمة لم تكن سوى "أول خدمة"، فهي علاقة من طرف واحد وقد ماتت في مهدها". إلا أنه في بعض الحالات، كان المستفيد يظهر بعد عدة سنوات كأن شيئاً لم يكن ليطلب منه خدمة أخرى، فبازيل الذي كان يحق له طرده دون حرج يستقبله ناسياً هو الآخر كل ما بدر منه في الماضي وكأنه الابن الضال الذي عاد، وإذا بمفكرته تمتلئ من جديد بعنوان ورقم تليفون، وهكذا تستعيد السلسلة حلقة من حلقاتها.

ومن أجل لقاء العشاء هذا كان يمكن لواحدة غير مانويلا - أعنى بذلك لورانس مويرجيه - أن تبدى رغبتها في أن تلعب دور سيدة المنزل. ولكن عازفة الناي آثرت الاختفاء في الصباح الباكر آخذة أمتعتها القليلة، فقد خمنت أن بازيل كان يريد أن يستقبل ضيوفه بمفرده.

وفي الواقع كان إعداد عشاء لثلاثة أفراد في بيته، يُعد أحد الأمور التي تبعث في نفسه سعادة كبيرة حيث كان يجيد فن اختيار الأشخاص، الذين يتوافقون مع بعضهم بعضا كما لو كان ينسق زهورا أو ألوانا. ولكن أحيانا كانت تنتابه الجراة، فذات مساء كان شديد الفرح لأنه سمح لعالم فلك أن يلتقى بمغنى أوبرالى كان معجبا به منذ زمن طويل. كان هذا المغنى يهتم بعجائب الكون ولم يكن يخطر بباله أن يطرق يوما باب عضو من أعضاء مدرسة كولاج دى فرانس في غرفة السفارة الخاصة ببازيل. وهنا أيضا تعارف مؤلفا مجموعة "تير أو بوت" وهي الأكثر مبيعا في فرنسا؛ وحتى صاحب المكان لم يكن يتخيل مطلقا حدوث مقابلة طيبة بين مهندس ذرة من ساكليه ولاعب كرة قدم من سانت اتيان.

ولكن في ٩ يناير ١٩٦٥، كان بازيل متوترًا فقد شعر بعدم التوافق بين هذين المدعويين، إذ لم يشرب الرسام سوى الماء مما أضاف على المقابلة نوعاً من الفتور منذ البداية، أما بالنسبة لنقابي شركة رينولد فقد كان من الواضح أنه لا يهتم مطلقاً بالفن التجريدي، فعندما تركهما بازيل وحدهما لبعض الوقت لإحضار وجبة البايلا الإسبانية، أخذ يتساءل إذا ما كان هذه المرة لم يحسن التصرف أو ارتكب خطأ كبيراً.

وربما ما شعر به الرسام من استفزاز حمله على الانطلاق في مدح الاقتصاد الأمريكي، فقال بازيل مندهشاً:

- لكنني كنت أظنك يسارياً؟

فأجاب الفنان:

- يمكن أن يكون المرء يسارياً وذكياً!

إن المناضل في اتحاد العمل العام لم يكن يكره المناظرة الخطابية، ولكنه كان يرى أنه لا جدوى من وراء مبارزة مثل هذا الهاوى. فبدا بازيل قلقاً ولاحظ أن كليهما لم يتناولوا إلا قليلاً من البايلا وندم أنه لم يقدم لهما فخذاً لخروف أو لحماً مسلوقاً.

بدأت المناقشة تغتر، فأخذ بـ بـ يبذل جهداً رائعاً ومنتظماً لإحيائها، فانطلق يحكى مغامرة من القصص الكلاسيكي بكل

تفاصيلها وهي تتعلق بأحد أجداد عائلة دبور الذى أصاب عقله الشطط بعض الشيء، حيث إنه كان يريد أن يقلد العصفير فقذف بنفسه من فوق قلعة القاهرة، لولا مرور الدرويش الدوار فى ذلك الوقت لينقذ حياة "رائد الطيران"، وذلك كما تقول الأسطورة.

فإذا بالنقابي يقول:

- أنا من كاليه، وقد انطلق بالقرب منى، بليريو، من شاطئ صغير لينجح فى أول عبور جوى لبحر المانش.

ساهمت حكاية بازيل فى تخفيف حدة التوتر، وأخبرهما الرسام أنه قد عرض منذ سنوات فى لندن لوحة سماها "طيران".

فشعر بازيل بارتياح وذهب ليحضر الجين، فسأل النقابي الرسام:

- وكيف كانت هذه اللوحة؟

- لوحة تجريدية.

- كيف كان هذا؟

- لوحة من التيل الأبيض

- ماذا؟ فقط ولا شيء مرسوم عليها.

- الركن الأيمن السفلى رُسمت عليه سحابتان رماديتان كعلامات مميزة لمرور خاطف.

فقال مناضل اتحاد العمل الفرنسي بلهجة تملؤها السخرية:

- كنت أحب أن أرى هذا الشيء بنفسى.

فرد الرسام قائلاً:

- هذه اللوحة لم تعد عندى، ولا بد أن أعترف أنها قد بيعت

بمبلغ كبير لهاوٍ من كاليفورنيا.

اعتقد بازيل أنه ينبغي له أن يملأ كأس النقابى وقال:

- لقد وصلنى هذا النبىذ من بوجونى الأسبوع الماضى، قل

لى بصراحة ما رأيك فيه؟

غير أن هذا العشاء قد فشل تماماً؛ إذ شعر بازيل بصداع شديد

منعه من أن يتمسك بضييفه اللذين رحلا واحداً بعد الآخر وذلك عقب

احتساء القهوة مباشرة، وذهب لينام دون أن يفرغ المائدة حيث كان

مغتاظاً وفمه مملوء بشتائم عربية.

وفى اليوم التالى فى فترة ما بعد الظهر كان بازيل على

موعد مع مانويلا فى حانة صغيرة فى سان جرمان دى بريه، وعندما

وجدته مرتبكا وثائراً للغاية سألته قائلة:

- ما أخبار البايلا؟

- سيئة للغاية.

- من الأفضل إذا أن تغيّر قائمة طعامك.

- تقصدين أن أغير البلاد! فما أعجب هذه الصلابة، بل هذه الثقة الجامدة التي يتسم بها الفرنسيون! فهم ككتل الجليد ذات الزوايا المدببة وهذا ما يفسر استمرار الحرب الأهلية.

كادت مانويلا أن ترد عليه بأن لا شيء يجبره على التصدي للرصاص في الصفوف الأولى، لكن الاضطراب الذي كانت تراه في عينيه هز مشاعرها فقالت له:

- الدنيا هنا مليئة بالدخان، فما رأيك أن نتمشى في هذه الشمس؟

وقادته إلى الأرصفة وبعدها نزلا عدة درجات، أدركا أنهما في المكان الذي كان قد تقابلا فيه المرة الأولى، فأخرجت مانويلا الناي وأخذت تعزف عليه فنظر إليها بازيل مفتوناً وسألها:

- أهذا ناي؟

فتهاوت بين ذراعيه.

(٣٣)

كان شخص يدعى إرنست زيمبرباخ يتصل بانتظام ببازيل
ويلومه على الدوام قائلاً:

- إنك لا تتصل بي مطلقاً يا سيد باتركاني، يبدو أنك قد
نسيتني.

أما بازيل فقد كان يرفع عينيه إلى السماء ويتحدث إليه بنبرة
ملولة نوعاً ما ليحاول أن يهدئه قائلاً:

- لا يا سيدي أنا لم أنساك.

لدى سماعي للمرة الأولى لاسم إرنست زيمبرباخ، أعربت
عن دهشتي وقلت:

- ألا تستطيع حقاً مساعدته يا بازيل؟

- أحاول، لكنه لا يشبع.

- أهو عنيد؟

- بل مدين.

منذ عدة سنوات مضت، زيمبرباخ الذى كان دباغا للجلود فى بلده، كان يحلم بتأجير محل يطل على شارع سان ميشيل. وكانت الأماكن نادرة ولكن بـ ب انتهى به الحال أن وجد له مكانا مناسباً وأيضاً رخيصاً. حينها كاد إرنست أن يجن من السعادة وأحب أن يعطى بازيل قيمة ثلاثة أشهر من الإيجار ليعبر له عن امتنانه؛ رفض بازيل ولكنه عندما أحس بحيرة الرجل الكبيرة، وعده أنه سيطلبه فى خدمة ما فى أول فرصة. ما إن جاء الأسبوع التالى حتى بعث له بالفعل بأرملة شابه لديها طفلان وتبحث عن عمل فقام الرجل بتشغيلها على الفور. ولكن زيمبرباخ كان يشعر أن ما قدمه لا يكفى ولم يكف عن اقتراح تقديم خدمات أخرى لبازيل. فقد كان لتعبير "سداد الدين" مدلول واسع المدى لديه، قطعة الإسفنج تبقى ندية مهما جاولت عصرها.

وبالفعل قام بازيل بالاتصال به ثلاث مرات متتالية أو أربع، وفى كل مرة يحقق نجاحاً ملحوظاً ولكنه يظل يشعر بمحدودية أثره. فقد كان هذا الدباغ يحمل على عاتقه عبء دينه، الذى لا يكف عن محاولة تسديده، فكان دائماً ما يتصل ببازيل شاكياً له:

- إنك لم تعد تتصل بى يا سيد باتركانى! يبدو أنك لم تعد

تثق بى.

ظنت مانويلا أنها قد كشفت السر، فعرضت ذات مساء فى
المطعم ما وجدته وكانت تبدو عليها البهجة، قائلة:

- زيمبرباخ هذا من الزاس، ويبدو أنه قد تأثر بلغة جوتا.
فرد بازيل بابتسامة متسائلا:

- آه حقاً؟

- فسألته قائلة: أتعرف كيف تقول "مدين" بالألمانية؟
- باللغة الألمانية لا أعرف أن أقول حتى صباح الخير
- "مدين" تعنى "شولج"
- أحسنت.

- انتظر، أتعرف ماذا تعنى "مذنب" بالألمانية؟

فانتظرت وبعد عدة ثوان قالت:

- "مذنب" تعنى أيضا "شولج"!

و لكن أيا ما كانت تعنى الكلمات، فلم تضيف لبازيل شيئاً.

فى كل مساء، كان زيمبرباخ ينظف المحل ويلمعه ويجليه،
فقد كان يعتنى به أكثر مما يُعنى بكنيسة كرملية صغيرة. حيث كانت

حقائب السيدات مترصصة فى الواجفة الزجاجية وكأنها فى عرض. فهذا الرجل الدقيق كان يسكن مع والدته وكان يمر صبيحة كل أحد قبل القداس للتأكد أن الأنوار مطفأة، على الرغم من أنه كان قد تأكد فى البارحة قبل رحيله أن كل مفاتيح الكهرباء مؤمنة مفتاحا بعد آخر...

كان هذا الألزاسى أنيقاً ودائماً ما كان يرتدى الحلل القاتمة وكل ما هو غير مألوف وينظم حياته تنظيمًا تاماً لا يترك مجالاً للصدفة فلا شيء يزعجه أكثر من ميعاد مفاجئ أو إلغاء ميعاد للتسليم فى آخر لحظة.

كان حب زيمبرباخ للنظام يصاحبه كره كبير للقفارة؛ وكانت هذه الكلمة تعنى له الغبار ووسخ الحمام - بقدر ما تعنى فساد الأخلاق، ولكن ألم يكن هو نفسه يعيش فى الخطيئة؟ ألم يكن مذنباً لأنه لم يعمل قط بالقدر الكافى؟ إن وسواس الخطيئة وهذيان الشعور بالذنب قد تجسدا فى دينه لبازيل، حيث إن هذا المحل الذى يعطيه الكثير من أوجه الرضا كان بمثابة الأثر على الجلد، بل كالكى بالحديد الأحمر الذى لا يمحي.

لم يكن بازيل يعرف ماذا يفعل، حتى إنه كان يتراجع فى بعض الأوقات. وكان يقول لنا:

- عندما أطلب منه خدمة فإن ذلك يزعج به فى الوهم مما يضر به.

لكن أنين السيد زيمبرباخ، كان يهز بازيل حتى إنه كان يخترع طلبات تافهة فيحاول الآخر أن يلببها بسرعة وأحياناً كان الأمر مثيراً للضحك. ففي يوم ما، لم يعرف بازيل ماذا يطلب، فرغم أنه يطلب حزاماً من نوع معين، فإذا به يتسلم ستة أحزمة من جلد التمساح وستة آخرين من جلد العظاية. ومنذ ذلك الحين يتجنب بازيل طلب الدباغ في أى شيء مادي.

قالت مانويلا لبازيل:

- يبدو أن زيمبرباخ سيكتب لك وصيته.

فرد بازيل:

- إذا سيقوم بالاتصال بي من السماء ليعرض على خدماته!

لا شيء كان يحبط بازيل مثل الأشخاص الذين يرغبون في تسديد ديونهم على الفور، إذ كان يعلق بمرارة قائلاً:

- إن الزبون الذي يرغب في تسديد دينه على الفور خسران، وكان أحياناً يصرخ قائلاً:

- عجيب أمر هؤلاء الأشخاص! فما إن تقدم لهم هدية حتى يسارعون بإخراج دفتر الشيكات. يا له من أدب! أو يريدون أن يردوا لك الهدية وكأنهم يودون محو أثر هذا المعروف، ولو استطاعوا لأعادوا الهدية نفسها في علبتها ودون فتحها. فهذه هي الوسيلة التي تؤكد لهم أنهم ليسوا مدينين بشيء.

ولقد قال لصديق ناشر في يوم من الأيام:

- لماذا ننشر كتبنا عن فن الاستقبال والأجدر بنا أن نعلم الأفراد فن تلقى الخدمات فهذا أولاً ما يسمى بفن الحياة!

كنت أحتاج إلى بعض الوقت لأميز تناقضاً ظاهراً:

إذا ما كان نظام بازيل يقوم على تبادل الخدمات، ألا يفترض ذلك بحق ضرورة "ردها"؟ في الحقيقة لم يكن الأمر صريحاً وليس

من المفترض أن يكون كذلك فالخدمة ترد تلقائياً في وقتها. حيث إن إبرام عقد في البداية لا يعنى سوى مقايضة رخيصة حتى وإن كانت آجلة:

- هذا مقابل ذلك... وحيث إن مقابل الخدمة لا يتساوى بأى حال من الأحوال مع الخدمة المقدمة، فهناك دائما دين يبقى في هذا الاتجاه أو ذلك وهو الذى يقوى الرباط.

كان بازيل يكره التعبير "خذ وأعط" وقد لاحظت ذلك بنفسى لدى زيارتى الأولى له فى يوم عيد القيامة.

و قال معلقا:

- إن هذه هى شريعة المساواة العين بالعين والسن بالسن والهبة بالهبة، فتساءلت قائلا:

- ومع ذلك هل يمكن أن نساوى بين خدمتين؟

- إن ذلك يتوقف على أشياء كثيرة يا سيدى الفيلسوف: لمن تقدم الخدمة وكيف تقدمها... والطريقة التى تتقبل بها... إن الخدمة ليست مجرد خدمة بمعناها الضيق بل تفوق ذلك بكثير فهى تتوقف على ما تقدمه وأسلوب التقديم وكل ما يصاحب ذلك من أمور.

لم يعد بازيل ينادينى بسيدى الاقتصادى إلا عندما يكون معترضاً على ما أقول، وأصبحت أنا السيد الفيلسوف أو ببساطة أكثر، أرسطو.

إن فكرة ضرورة "الرد" هذى كانت تزعجه أشد ما يكون
الإزعاج. فيقول:

- تسديد... رد. يا لها من كلمات غريبة تشعرنى بالغثيان،
كلمات مجردة تصل إلى حد البذاءة، بل تحتاج إلى إضافة ليكون لها
معنى، فعندما نسدد؛ نسدد الضربات، نرد العدالة أو نسدد الحسابات.

فقلت معلقاً:

- لكننا على الرغم من ذلك نرد الخدمات.

فنظر إلى مندهشاً وقال:

- هذا صحيح، ويا له من تعبير غريب! فينبغى أيضاً أن تقدم
خدمة، فلماذا ترد؟ وخاصة عندما تقوم أنت بها أولاً.

وبعد لحظات من التفكير قال بازيل:

- ولكنها ليست أبداً الخدمة الأولى فكاننا نولد مدينين؛
وأى دين! إنها الحياة التى وهبت لنا وبعد ذلك كل شيء... فالديون
تغمرنا. وفى واقع الأمر نحن لا نرد إلا شيئاً قليلاً مما منح لنا
فى طفولتنا.

وما الذى أخذه بازيل؟ لقد كان هو نفسه يعجز عن الإجابة،
وذلك لأن شخصيته قد تشكلت على هذا النحو منذ طفولته، مثله مثل
الفنان الذى يمتزج بمواهبه، أما بازيل فقد كان يجيد فن نسج العلاقات.

وظل يفكر بصوت عال قائلاً:

- لا بد دائماً أن يسأل المرء عن المكان الذي وُهِبَتْ له فِيهِه الحياة... وها أنا الآن أتفلسف!

أرأيت إلى أين سارت بي ملاحظاتك!

وكان ب ب لم يكن يود أن يصور مفاهيمه، فهذا الذي يحب الكلمات كان يكره التعريفات.

لقد اشتقت لأن أرى سابين التي لم أرها منذ عدة شهور، فقد اشتقت إلى ضحكها وشقاوتها وغضبها... ولكن من ذا الذي كان يمنعني بعد كل هذا لأذهب إلى مكتبها في حديقة النباتات؟ كنت أتخيل أنني سأقول لها "إنني كنت مارا من هنا وفكرت أن أتى لأسلم عليك وأعلمك ببعض الأخبار...".

وعندما اقتربت من مدخل المنزل، رأيتها تخرج مسرعة وهي تتأبط لوحة رسم كبيرة، وكان الأتوبيس قد وصل لتوه إلى المحطة لم تكن تريد أن يفوتها، واندحشت عندما رأته في طريقها فسلمت على بسرعة وقالت "أهلا... عن إيدك"، وذلك قبل أن تندفع داخل المركبة وتشق لنفسها طريقا في المؤخرة أينما يوجد الموقف المكشوف حيث كانت تكلمني وهي تنهج فقلت لها:

- إنني كنت مارا من هنا وفكرت أن أحضر لأسلم عليك.

- في الحقيقة هذا شيء لطيف منك ويجب أن نتقابل، وإذا أردت فإنني غدا بعد الظهر سأعمل بالمنزل.

تحركت المركبة فأشرت لها بيدي وأومات لها برأسى عدة مرات دليلاً على قبول دعوتها.

كانت همرات مطر شهر مارس المصحوبة بالبرد القارس قد اختفت مخلفة وراءها طقساً شبه صيفي؛ ومن استوديو سابين الذي يطل على حديقة مونتسوري، كانت نغمرنا أشجار الكريز المزهرة، حيث كانت النباتات تحيط بشتى جوانب هذه الحجرة العالية من خلال نوافذها الزجاجية الكبيرة. وكان هناك سلم حلزوني يؤدي إلى غرفة نوم في الدور الأرضي لا يقفلها سوى درابزين من الخشب.

كانت حافية القدمين لا ترتدي سوى بنطلون قصير وصدريه بلا أكمام لا تكاد تغطي نهديها، وأظن أنها لم تكن تنتظر حضورى في هذا الوقت المبكر، حيث لم تكن الساعة قد تعدت الثانية ظهراً، ولكن فترة ما بعد الظهر كانت بالنسبة لى، تبدأ في الثانية خاصة في هذا اليوم.

قبلتني على الخدين ثم سألتني قائلة:

- أفضّل قهوة أم مزيجاً من الفواكه الذى أحضره بالمنزل؟

كان هذا المزيج مؤلفاً من فواكه غير مألوفة لدى الفرنسيين مثل عصير القصب والروم، مما جعل رأسى تدور. وفي أحد أركان الغرفة - وهو يعد بمثابة صالون - كانت سابين تجلس ممددة ساقها ومسترخية على عدد من الوسائد، وكانت النافذة الموارية تسمح بدخول هواء منعش مختلط بعبق الربيع وضوضاء أطفال تأتي من بعيد مما جعلنى أشعر بارتياح.

استطردت سابيين بعدها قائلة:

- يبدو أنك قد انتقلت إلى مسكن جديد، فقد أخبرني بازيل أنك الآن تسكن في شارع دي زيكول.

آه وأنا الذى كنت أستعد لأخبارها عن ابن عمى...

وسألته متفاجئا:

- هل رأيته مؤخرا؟

- نعم، فقد ذهبنا معا نقضى عطلة نهاية الأسبوع فى بورجونى.

فذهلت إلى حد أثار ضحكها وقالت:

- لا تكن أحمق! ماذا تتوهم؟ ذهبنا كصديقين للاحتفال بعيد ميلاد لدى أصدقاء، ثم إن بازيل ليس من النوع الذى يقدم على مغامرات غرامية سرية؟ عساك لا تظنه الآن يخدع مانويلا!

حتى فيما يتعلق بمانويلا فإنها كانت تتحدث عنها وكأنها تعرفها، فشعرت بالضيق وفضلت أن أنتقل إلى موضوع آخر:

- وماذا تفعلين الآن؟

- تعال وانظر.

كانت هناك لوحات لنوع من أنواع النبات معروضة على
منضدة كبيرة حيث قالت سابين:

- من المؤكد أنك تعرف هذا النبات بأوراقه ذات الأطراف
المسننة وزهوره المدبية؛ فهذا النبات هو سانتورا الكساندريا الذى
أحضره علماء بونابرت إلى مصر، حتى الرسم موقع من رافنودى
ليل، تمنع قليلا فى دقة الرسم.

مالت سابين لترينى الرسم وملت أنا أيضا فكان نهذا سابين
أكثر إثارة من جميع أعمال رافنودى، هذا وبلفته بسيطة رفعت سابين
صدريتها وكأن نظراتي قد ضايقتها.

ثم سألتها عدة أسئلة عامة حول نبات الإسكندرية الذى يبدو
أننى كنت قد رأيتة فى القرية على شاطئ البحر أينما كنا نذهب
لقضاء الصيف. وعلى كل حال فهذا الذى قلته بدا لها معقولا.

كانت سابين لا تزال تلاحظ نبات سانتورا الكساندريا وعندما
أعدت لها العدسة التى أعطتها لى لمست ذراعها فارتعشت وأدارت
رأسها نحوى فالتهمتها عيناى ودون أن أتمالك نفسى لامست كتفها
فقالته بنبرة عتاب:

- تبا لك..

ولكن نظراتها كانت تقول عكس ذلك فوقفنا معًا، وكاد وجهانا أن يتلامسا، فقالت لى بابتسامة رقيقة:

- ألم أقل لك تبا لك.

ولامست أصابعي شفثيها فارتعشت وأغمضت عينيها للحظة، فخبأت وجهي فى شعرها وسكرتتى رائحة الخبيزة والنعناع البرى الذى طالما تخيلته. ثم أخذت سابين تفك أزرار القميص رويدًا رويدًا فمرور الوقت لم يعد يشغلها إذ أخذت تمرر يدها على صدرى، يالها من يد حانية... وتلاقت شفاهنا المشتاقة وقادتنى نحو السلم وقالت:

- تعال!

كانت هناك مرتبة كبيرة على الأرض تفترش الدور الأرضى كله تقريبًا، أما سابين فقد انتهى بها الحال أن جردتنى من ملابسى تماما، ولم أمانع، فإذا بكيانى كله بين يديها اللتين كانتا تكتشفان جسدى كما تكتشفان رغباتى الدفينة.

وأخذت سابين تخلع صدريتها على مهل ناحية بعد أخرى، وإذا بنهديها الخمراوين يتجهان نحوى فيدعوانى لملاستهما؛ كنت أقترب وأبتعد مرة بعد مرة لألامسهما وأذوق عذوبتهما وأتحسس صلابتهما بما فى ذلك كله من نشوى غامرة تدفعنى للاقتراب والابتعاد معًا. وقالت لى مرة أخرى:

- تعال.

والآن كانت سابين تغفو وعلى شفثيها ابتسامة غامضة وبدا شعرها المتناثر حولها كأنه بقعة داكنة على الفراش، ولامست الندبة الحمراء أسفل بطنها فقالت:

- هذا أثر عملية بسيطة أجريت لى وأنا فى التاسعة عشرة من عمى..

فذلك سر لم يعد بازيل وحده هو الذى يعرفه.

وبعد ساعة من ذلك، تركتها وأنا فى غاية السعادة فلم يبدو لى لون شجر الكريز بهذا البياض الناصع من قبل، ولم أسمع قط تغريد العنادل بهذا الوضوح فى منتزه مونتسكيو كهذه المرة. ولقد كنت أعرف أن هذا اللقاء الأول والأخير وقطعا هى أيضا كانت تعلم ذلك أكثر منى، حيث إنها لم تقل "إلى اللقاء" وكل ما قالته هو مجرد "سلام" وقَبَل كل منا الآخر على خديه تماما كما كنا نفعل من قبل.

وذلك قبل أن نقطف سانتورا الكساندريا.

كنت أشعر بالحرج تجاه بازيل، فهل يمكنني أن أخفي عليه هذه المغامرة حتى وإن كانت لن تتكرر وقد تقارب كلانا من الآخر على هذا النحو؟ وفي أول فرصة استجمعت شجاعتي وقلت:

- حدث لي شيء غريب ذات يوم، لقد قابلت سابقين...

قال بازيل بصوت فرح:

- آه... حسنا

ولم يتح لي فرصة لأكمل كلامي وقال:

- هذا شأنك أنت وهي يا أرسطو، لا داعي أن تقول لي ذلك.

فشكرته بابتسامة وانتهى الحديث بنا إلى هنا.

كانت صداقتنا تقوى كلما تبادلنا خدمات صغيرة وكلما سمح لي بالاستفادة من معلوماته ونصائحه أو من مقابلاته. إنني لا أذكر أنه قال لي من قبل:

"هل يمكن أن أطلب منك خدمة" فلقد كانت هذه الصيغة تبدو له مضحكة حتى إنه كان يقول:

- إن الطلب لا يستلزم إذنا مسبقا.

كان ذلك يذكره بالمشادة المعتادة بين جيرانه الذين يسكنون فى الطابق الأعلى؛ فهما زوجان مسنان يعيشان معا ليتشاجرا ولكنهما لم يستطيعا مطلقا التفكير فى الطلاق. فكانت الزوجة تصرخ فى زوجها قائلة له:

- هل يمكنك إنزال القمامة.

فيرد الزوج:

- بالتأكيد ولكنى لا أرغب فى إنزالها.

كان ب ب يهمس إلى بصوته الذى لا يقاوم ويقول:

- هل يمكنك أن تقدم لى شيئا يسرنى؟

كنت أسرع لألبى نداءه حتى وإن كلفى ذلك التغيب عن محاضرة أو الانقطاع عن عمل ما، فأحيانا كان يتعين على الذهاب إلى الجانب الآخر من باريس لمقابلة أشخاص غير متوقعين، مثل ذلك الموسيقى المسن الذى كان بالمعاش ويسكن غرفة أسفل السلم فى الحى العشرين، والذى كان يجب على أن أسلمه فى يده فى يوم عيد ميلاده زجاجتين "فوف كليكو".

كانت الحال تصل ببازيل أحيانا أن ينسى خدمة قدمتها له ويقول مندهشا:

- آه! أنت الشخص الذي ذهب لتسليم الخطاب؟

فى البداية كان ذلك يضايقنى، لكننى أدركت فيما بعد أن هذا النسيان يشهد على كثرة ما قمنا به من تعاملات. حتى أنا لم أعد أذكر كل تصرفاته تجاهى فلماذا يقال: "تعاشروا كالأحباب وتعاملوا كأجانب"؟ فيبنى وبين بازيل لم يكن هناك أى حسابات، وكما كان يؤكد السيد روجيه مارينللى بأسلوب بليغ نوعا ما:

- ليس للمرء شيء عند صاحبه وله عنده كل شيء.

ترى من منا كان مدينا للآخر؟ كنت دائما أشعر أنني آخذ أكثر مما أعطى، على الرغم من أن عطائى كان يزداد أكثر فأكثر، فما بيننا تبادل لا نهائى يكاد يكون تشاطرا.

لقد كنت أفخر بصداقة بازيل، على الرغم من شعورى أنها ليست لشخصى فقط. فمما لا شك فيه أنني كنت أمثل له وسيلة الاتصال الحى مع عائلته وأيام طفولته.

فى أغلب الأحيان كان يسألنى أسئلة تافهة تدهشنى:

- أين توجد بالضبط شرفة الغطس الخاصة بحمام سباحة نادى سبورتنج بمصر الجديدة؟ وهل الأطفال ما زالوا يلعبون البلى فى الممر المؤدى إلى الصالة المغطاة؟ وهل كان صحيحا أن المقاعد فى حديقة سينما نورماندى قد تغيرت؟

وهو أيضا كان يتحدث عن ذكريات، فقد علمت منه أنه كان في طفولته يستطيع أن يرى أهرامات الجيزة من مصر الجديدة، وكنا نعرف أن معظم لافتات ميدان عباس كانت مكتوبة باللغة الفرنسية. فكان يقول:

- تخيل أن هذه اللافتات مكتوبة بالفرنسية في بلد عربي كان يرزح تحت الاحتلال الإنجليزي منذ عدة عقود ...

في باريس، كان ب ب يعلمني قوانين المرور وكان يحذرني من السير في الاتجاه الممنوع أو الطريق المسدود. وكان يقول:

- يا حبيبي نحن لا نعتبر أغرابا، ولكنهم لن ينظروا إلينا يوما بوصفنا فرنسيين، وربما يكون هذا من حسن حظنا.

وكان بازيل يأخذ على اهتمامي الزائد في أن أذوب في هذا الوسط الذي أعيش فيه ويقول:

- يا أرسطو انتبه، لقد أصبحت فرنسيا أكثر مما يجب، فمع مرور الوقت لن تجذب انتباه أحد.

وفى ربيع عام ١٩٦٥، قابلنا سامى دبور ابن عم بازيل الحقيقى، هذا الجشع، شديد النحافة ترك مصر قبل بازيل بأربع سنوات ليستقر فى كندا. وقد اكتسب شهرة من شرائه للشركات التى تواجه أزمات. فلا أحد يضاهيه فى فن استشعار الإفلاس، وعندما يستحوذ على منشأة متعثرة بسعر جيد، يبدأ أولا ببيع الأسهم وجزء من العقارات، ثم يعلن أنها قد توقفت عن الدفع وبعد شراء الديون بنصف الثمن عن طريق شركة صورية، يقوم بتقليل القيمة الفعلية مستغلا فى ذلك التدخل القضائى. والمنشأة التى قد يتم تخليصها مؤقتا من الورطة بواسطة ألعابيه، تباع مرة أخرى بأرباح ضعيفة.

وفى سبيل تحقيق الثروة كان يفعل أى شيء حتى ولو كان على حساب والده أو والدته، ويبدو أنه قد أحزن أمه حزنا شديدا عندما أجبرها على بيع فيلا بالإسكندرية كانت قد قضت فيها طفولتها ليبنى مكانها بناية من عشرين طابقا. وقد تبدل مظهر هذه المرأة المسكينة فى يوم وليلة، حيث بدت أكبر من عمرها بعشرين عاما حتى أن أحد أفراد العائلة قد علق تعليقا لاذعا وقال:

- سنة عن كل طابق.

وفى كندا كان سامى يسمع الناس وهم يتحدثون يوماً بعد آخر عن شبكة علاقات بازيل وعن نفوذه، فعزم على السفر إلى باريس ليدرس الأمر عن قرب وذلك بغية إنشاء شبكة فى أوروبا.

وقد قام سامى دبور بدعوة ابن عمى على الغداء فى فندق كريون حيث قال له:

- إننا لم نتقابل منذ زمن بعيد وقد مرت الأيام ومضى كل منا فى طريقه، فهل لنا أن نتناول الغداء معاً؟

فتجنب بازيل الرد حيث كان هذا الغداء يضايقه وقال لى:

- تعال معى، فربما يجنبنى ذلك الوجود معه بمفردى. وعلى أى حال فإن طالب العلوم الاقتصادية ينبغى له أيضاً الاهتمام بالمطابخ حتى وإن ساءت رائحتها.

فقلت:

- ربما لا يرغب ابن عمك فى وجودى.

فرد بلووم:

- أولاد عم ابن العم هم أولاد عموممتنا.

وكما توقعت كان سامى مستاء من وجودى حتى إنه تجنب النظر إليّ.

وما إن وضعت المشهيات حتى أنزل سامى على بازيل وابلا
من الأسئلة وقال له:

- هيا، أخرج ما فى جعبتك.

فرد بازيل مازحا:

- إنها ليست جعبة ولكنها مجرد غطاء.

ففهمها سامى على أنها "واجهة"... فأصغى جيدا ولكن ما تلا
ذلك من حديث خيب ظنه؟ فالإلام تهدف هذه المؤسسة التى يعاد
استثمار فوائدها بالكامل وبصورة منظمة؟، أول الأمر اعتقد أن بازيل
يسخر منه.

فرد سامى قائلا:

- لا تقصص على حكايات! فإنك ليس فقط لا تطلب نقودا
لكنك أيضا تضيعها، ناهيك عن الوقت المهدر، فقال بازيل:

- ولماذا مهدر؟

- لأنك تعطى من وقتك.

- نحن لا نعطي وقتنا مطلقاً، إنما نولى اهتماما... نقدم
نصائح، معلومات أو صداقة، لا أعرف؟ حيث إن الوقت لا يملكه
أحد ولكنه فقط أداة قياس.

لم يفهم سامى اعتراض بازيل بهذا الشأن فتطرق إلى موضوع آخر وقال:

- إننى أتساءل إذا ما كنت حقاً يا بازيل تحسن إدارة مفكرة هاتفك، وذلك لأن كل هؤلاء الناس الذين يدينون لك يمكن استثمارهم استثماراً مضموناً. إن من يملك رأس مال اجتماعى مثل الذى تملكه يستطيع أن يفعل به الكثير وأقسم لك بشرفى!

كان من الممكن أن أجد كلام سامى دبور منطقياً للغاية لو كنت قد سمعته منذ عام ونصف قبل أن أعرف بازيل، فلقد كنت أحياناً أسأل نفسى عن نظام ب ب عندما تطارده جماعة من الملحّين. ولكن هنا بين القرش الذى يجلس عن جانبي الأيسر، ورجل المزاج الذى أعجب به إعجاباً شديداً، لم يعد هذا السؤال يدور ببالى.

لقد كانت إجابات بازيل الفاترة تقنع سامى دبور تدريجياً بأن بازيل رجل لا يعى قوة الثروة الكامنة بين يديه، لذا أخذ يخاطبه بلهجة المعلم أو بالأحرى بلهجة الأب ويقول له:

- اسمعنى يا ب ب إنك تمتلك رأس مال كبير وهو مجموع ديون الناس المدينين لك. احسبها قليلاً! أعلم أنك قمت فى البداية بتقديم خدمات مجانية لتكون هذه الثروة، ولكن اليوم إذا أردت رأى فإن عدم استثمارها يعد خطيئة "حراماً" بل عملاً غير أخلاقى.

لا أحد يعرف من الذى طلب رأيه، ومما يثير الضحك أنه يتحدث عن الأخلاق، ولكنه دون أن يغير من نبرته واصل حديثه قائلاً:

- يا "بابا" لازم تكون مرناً! المهم ما يدخل الخزنة، فيمكن أن يدخل الخزنة على الفور إذا ما قبضت ثمن الخدمة فوراً، ويمكن أيضاً أن يكون استثماراً أو قرصاً إذا أردت؛ وذلك لأن من المعروف أنه لا يوجد قرض شرف دون فوائد وإننى لأؤكد على الشرف، وهنا لم يستطع بازيل إخفاء ابتسامته، حيث كان سامى دبور يقضم بعصبية وبسرعة شديدة قطعة من اللحم ويرد على الأسئلة التى يطرحها قائلاً:

- ولكن لماذا قرض؟ لأننا إذا افترضنا أنك تقدم خدمة قيمتها (س) ولم يقم العميل بسداد قيمتها على الفور، إذا فهو مدين لك بقيمة تعويضية قيمتها (س+ص) ولك أنت أن تحدد الفائدة. فيمكنك إبرام الاتفاقات وفقاً للفترة الزمنية وينبغى لك أن تتحلى بالمرونة.

كان سامى يقول "نحن" كما لو كان شريكاً لبازيل فى شئونه ويقول:

- نحن لا بد لنا أن نقدم الخدمات فى شيء من الفطنة، أى لمن نوقن أنهم سيعترفون بالجميل، حيث إن التوظيف الجيد للنقود يعود بأحسن الفوائد...

كان بازيل ينظر من النافذة إلى العربات التي تدور حول مسلة ميدان الكونكوردي ويتذكر في سرور أحد أوائل الأسئلة التي طرحها عليه السيد بليسيه بونتال عندما وظفه:

- هل تعتبر هذه الإبرة الحجرية مطابقة للمسلة القابعة في مدخل معبد الأقصر؟ وللإجابة عن هذا السؤال قام بازيل بالبحث في المكتبة القومية، وذلك لأنه لم يرَ مطلقاً معبد الأقصر.

ووضع الحل، وحاولت أن أتحدث قليلاً مع سامي فخوراً بلقب طالب العلوم الاقتصادية الذي قدمني به بازيل أثناء التعارف.

وفي عبارتين وجيزتين، أوضح لي القرصان أنني سأضيع وقتاً أقل إذا ما بعث بطاطس محمرة في الطريق العام، فهو ذاته لم يحصل على البكالوريا ولا حتى الإعدادية ليجمع ثروته؛ واستدار نحو بازيل ليكمل عرضه قائلاً:

- حقاً لا بد لنا أن نتحلى بالمرونة، ولكن انتبه فالمرونة لا تعني التسامح الأبله! فالقرض يقتضى الاعتراف بالدين ولا بد أن يصاحبه الضمان؛ فابدأ إذاً بالتأكد من قدرة العميل على الوفاء بالدين.

في تلك الأثناء كان بازيل يتذوق على مهل حلوى الشارلوت بالكُمثرى وأنفه في صحنه ومن وقت لآخر كان يوجه لي نظرة متقلبة وأكمل سامي قائلاً:

- إن حدوث أمر طارئٍ شر محتمل على الرغم من كل الاحتياطات التي تؤخذ في البداية، حيث إنه من الممكن أن يعجز أحد العملاء عن رد النقود، ولكن والشكر لله توجد طرق لأحمي نفسي بها من السقوط. كما أن التكليف الرسمي بالوفاء بالدين لم يخترع هباء! فلا ينبغي لنا التساهل في هذه النقطة.

وأثناء احتساء القهوة بدأ سامي يقدم برهاناً مطولاً حول الدين: الدين اللاغى، والدين المعلق، والدين طويل الأمد، والدين المجمد، والدين الدائم...

وعندما شعر أن ابن عمه ينظر إليه نظرة ساخرة توقف عن الكلام فجأة وبدل من لهجته قائلاً:

- بابي أتريد أن أقول لك شيئاً؟ إنك تفسد المهنة وعلى أي حال يمكن أن تقاضى؟

- ولماذا أقاضى؟

- لممارسات غير شرعية أو منافسة غير شريفة.

- آه.. حسناً؟ ومن سيقاضيني؟

- لا يهم من! سماسة العقارات على سبيل المثال، فماذا تعتقد

إذا؟ حيث لا ينبغي لأحد أن يعمل دون تصريح.

فسأل بازيل فجأة هذا المتخصص فى الحيل وقال:

- وتحت أى مسمى ينبغى أن آخذ هذا التصريح.

- لا أعرف... فذلك شيء يدرس وسوف نرى.

وأكمل:

- المهم هو أن تقوم الصفقة على أساس سليم، ألا وهو الربحية. وعلى أى حال لا يحتاج الأمر أن نعلن كل شيء فكل ما هو ضرورى يمكن أن يدفع نقدًا ويتم تناقله من يد إلى يد وكل ذلك يمكن التحايل عليه. ولكن الأهم هو الإرادة وأنت رجل ذو نفوذ تفتح لك الأبواب بينما تظل أنت واقفا على الأعتاب، فدعنى أتصرف وفى غضون ستة أشهر أعددك بشرفى أنك ستكون واسع الثراء.

فأخذ بازيل وقتًا لإشعال السيجارة ثم قال بترو و بصوت

خافت:

- إن ذلك أمر لا يهمنى.

فظهرت فورة غضب على وجه سامى وبلفتة يملؤها الغيظ كبس ولاعته الفضية وقال:

- كنت أعتقد أنك ذكى يا بابى.

- أرايت حتى أنت يمكن أن تخطئ.

رحل سامى دبور إلى مونتريال مذهولاً فى الليلة نفسها
وهو يقول:

- ما هذا الرجل إلا طفلاً، فهو يلعب دور بابا نويل
طوال العام.

من يرى بازيل يشعر للوهلة الأولى أنه لا يشبه الشرقيين في شيء، فقد كان على النقيض من كل الخطباء نوى الأحاديث التقريبية المتفاخرة الذين كانوا يدخلون البهجة على نفوسنا في مرحلة الطفولة. والله وحده يعلم إن كان يستطيع أن يعرض على الملاء علاقاته وبطولاته! ولكن هل كان في حاجة إلى ذلك؟ إن المكانة الاجتماعية التي تحققت له من خلال تناقل الأحاديث كانت لها من الفاعلية والتأثير في نفسه ما يفوق الشهرة العامة بعشرة أمثالها وهذا ما كان يرضيه رضاء كاملاً.

وكان يسعده أيضاً ما يثيره من حيرة لدى زائريه من الشرق الأوسط باستقباله لهم في الدور الرابع في مكتب شارع ريمون لوسوران.

حيث كان يعلق وهو سعيد بتلاعبه بالكلمات ويقول:

- إن ذلك يحيرهم.

في الثلاثينيات في القاهرة، كان جده فرديناند هو المتبرع الأساسي للكنيسة، فقد كان اسمه يظهر دائماً على رأس قائمة فاعلي الخير التي تصدرها مجلة الباتريركية، فكانوا يقولون له:

- إن لك قلباً من ذهب.

كان ذلك يزيد من غروره أكثر فأكثر، حيث إنه لم يقرأ أبداً السطور القاسية التي كتبها الكاتب ليون بلوا ليصف هذه القلوب البرجوازية المتوهجة التي تشبه المعادن في صلابتها وخوائها الداخلي وانعدام إحساسها.

كان فرديناند باتركاني يطنطن بعطاءاته، فقد كان يحب الظهور والتفاخر بالكرم حتى داخل عائلته. وكانت هداياه ضخمة بل مستغزاة مثلها في ذلك مثل طبيعته الشخصية. ويحكى أنه بمناسبة زواج إحدى بنات أخيه، فاقت هديته كل الهدايا المقدمة في العرس؛ وذلك بتقديمه للعروسين سيارة كابورليه ذات لون أحمر قاني.

وكان ضحايا هذا الإسراف يئنون قائلين:

- مع ناندو يستحيل أن ترد!

فكل هدية كانت تبعده أكثر فأكثر عن هؤلاء الضحايا وتحدث فجوة بينه وبينهم، حتى إن موته قد أراحهم أكثر مما واسبى المدينين له.

ترى هل كان من قبيل الصدفة أن نظام بازيل يرتكز على التبادل؟ يبدو أن بازيل قد انتهج نهجاً مخالفاً تماماً لذلك الذي كان يسير عليه جده؛ وذلك لأن ثروة فرديناند باتركاني كان مصدرها القرض الربوي، أما بازيل فقد كان يقرض دون فائدة، ولكن هل كانت هذه قروضا؟ فهو لم يكن يرى في القرض إلا المعنى الأول

لهذه الكلمة، وهو أن تثق بشخص ما. لقد سيطر حب المال على حياة ناندو في مصر. أما في باريس فقد صنع حفيده لنفسه عالمًا بلا مال. لكن بازيل لم يجد المثل الذي يحتذى به في مصر فشخصيته قد تشكلت على النقيض من بعض الأشخاص وهم بلا شك: مظلوم بيه، فرديناند باتركاني، وكذلك وربما بصورة أكبر من الدروج مان "الترجمان" الذي تساءلت مانويلا عندما رأت صورته للمرة الأولى:

- من هذا الشخص العجيب؟

- إن هذا جد جدى من الأم، نديم حجر.

- هل كان ممثلاً؟

فأجاب بازيل وهو مبتسم:

- إلى حد ما ولكن ليس على خشبة المسرح فهكذا كان يرتدى في حياته العملية اليومية.

وكان نديم حجر وقوراً، ممشوق القوام، لقد مارس مهنة الترجمة في الفترة ما بين ١٨٨٠ و١٩٠٧. وكانت مصر تضم عشرات من هؤلاء الوسطاء الذين يتحدثون عدة لغات. كان معظمهم من الشرقيين الذين يصلون بين الأوربيين وعامة الشعب.

وفى الصورة كان نديم حجر يبدو متباهياً بشاربه الكثيف المتدلى، حيث يرتدى حلة شرقية بها سيف معقوف، لقد كانت

الصورة مصفرة نوعا ما من القدم وتحمل توقيع استديو توتا، وربما كانت هذه الصورة الشهيرة من تصميم دوريس توتا شخصيا.

لقد أكملت مانويلا ملاحظتها قائلة:

- إن كلمة دروج مان هذه كلمة غريبة تذكرني بكلب الحراسة الذى يسمى دوج مان أو دوبر مان...

فأوضح بازيل قائلاً:

- لا علاقة لها بذلك! فكلمة "دروج مان" تأتي من ترجمان وهى تعنى باللغة العربية مفسرا.

كان نديم حجر يعرف عدة لغات، وكان أيضا يعرف كيف يصرف أموره باللغة الفرنسية، ويعرف بعض التعبيرات فى اللغة الإنجليزية وكان يحلف بالإيطالية أحسن من سائق عربة الروبائيكيا.

وفى الحقيقة، كان هناك نوعان من "الترجمان". فأولئك الذين يمارسون هذه المهمة فى القنصلية هم بالفعل ممثلون دبلوماسيون وهم نبلاء تدربوا فى أوربا واختصاصاتهم تتعدى حدود الترجمة.

وأوضح ب ب قائلاً:

- إن جد جدى لم يكن سوى دروج مان حر فى خدمة عملاء الفنادق الكبرى فى القاهرة، حيث كان السائحون الأوربيون يلجأون إليه ليذهبوا إلى منابع النيل فى دهبية، فقد كان يأخذ على عاتقه نقلهم

من القاهرة إلى أسوان ذهاباً وإياباً. وكان هذا يتطلب عدة أسابيع، فكان يأخذ على عاتقه مصاريف المراكب والغذاء والحمير وسائقها. وأما العقد فقد كان مفصلاً للغاية وموقعاً في القنصلية؛ فقد كان مسئولاً عن ستة أشخاص، وهم المسافرون الذين يرافقهم. وينبغي أن يكون لكل مسافر سرير بناموسية وملاءات نظيفة يتم تغييرها كل يوم أحد، ومفرش أبيض يتغير كل يومين، وثلاث وجبات يومية من بينها وجبة دسمة.

وعلى الترجمان أن يشرف على تنظيف سطح المركب كل صباح وإنارته طوال الليل.

فعلقت مانويلا:

- يا له من عمل شاق! ألم أكن أقول لك ذلك...

- وليس هذا فحسب، بل إن الترجمان كان مسئولاً عن عمل الخبز وتطبيق النظام على المركب وكذلك عن الأعطال التي يمكن أن تحدث للمركب. وعندما يكون المسافرون نائمين يتعين عليه منع طاقم المركب من الغناء. وإذا كان المسافرون لديهم الحرية في الوقوف أينما يحلو لهم، فلم يكن الترجمان يستطيع أن يقلل من هذه الوقفات لخفض تكاليف الرحلة. فأصحاب العمل الذين يعاملونه بوصفه خادماً قد لا يدفعون الأجر المتفق عليه أو يرفضون إعطائه شهادة حسن السير والسلوك، وهذه الشهادة ضرورية ليكسب عملاء آخرين.

لم يكن نديم حجر يعلم شيئاً عن الحضارة الفرعونية التي كان كثيراً ما يسخر منها ولكن هذا لم يمنعه أن يكون لديه جواب لأي استفسار. وأثناء زيارة المعابد لم تكن هناك أي نقوش فرعونية يستعصى عليه، وكان شرحه الجريء لقصص الحب الفرعونية القديمة يبهر مستمعيه، ولكن في المساء على سطح المركب، كان مسافرو الصباح يجبرون السيد نديم على الالتزام بالنظام وهم بجانب مرشدهم السيد بيديكر.

في القاهرة كان نديم يصحب عملاءه في جولة إلى الأسواق. حيث كان يأخذ باليد اليسرى بقشيشاً من الأوربيين وباليد اليمنى نسبة من التجار. وكان محتقراً من البعض ومكروها من البعض الآخر حتى إنه كان يتحمل ضرب الحجارة من الأطفال حفاة الأقدام والذين كانوا ينادونه "يا فرنجي يا خواجه" قبل أن يختفوا هاربين في سحابة من الغبار.

لم يكن نديم حجر ينتمي إلى أية جهة، فقد كان جسراً بين عالمين وحائطاً فريداً ملطخاً بنقوش أثرية من الناحيتين. وكما أوضح بازيل:

- في الإمبراطورية العثمانية كان أجدادنا مستبعبين من الوظائف العامة والأساسية ولم يكن في وسعهم إلا أن يكونوا رجالاً في الظل أو أن يقوموا بدور الوسطاء؛ حيث كانت معرفتهم باللغتين والثقافتين تجعل منهم شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه.

إن كونه وسيطا في الشرق يعتبر شيئا طبيعيا، ولكن هل كان في استطاعة أحد المهاجرين مثل ب ب أن يكون وسيطا بين الأوربيين؟ لم أكن أنا الوحيد الذي يطرح مثل هذا السؤال فقد تعرض بازيل أكثر من مرة لعداوة أولئك الذين يندهشون من سلطته، ولكنه لم يكن يقف عند هذه الأشياء، لأنه مقتنع بانتمائه الحقيقي فقد كان يقول:

- وطننا يا أرسطو هو اللغة الفرنسية ولا أعرف إذا ما كنت سأموت يوما في سبيل هذه اللغة أم لا، لكنني محب للوطن.

ويشهد على ذلك حبه الشديد للتحدث والنطق بكلمات تحوى على حرف "P" مثل "بيريباتيتسيان".

كان بازيل يفكر بالفرنسية فهو يفقه منذ طفولته براعة اللغة عند موليير وأكثر من ذلك أنه كان يعشقها، وهذا العشق سهل اندماجه السريع داخل المجتمع الباريسى. فلهجته الغنائية وعذوبة نطقه لحرف الراء وكذلك استخدامه التعبيرات الجميلة الآتية مباشرة من سطح "جروبي" فى القاهرة، كل ذلك، كان يزيد من قوة حضوره. فذلك الذى تم انتزاعه من أرضه، لم يتخل عن شرقيته، فها هو يفرض أسلوبه ومرحه ودفءه.

وقد ذكر روجيه مارينيللى وهو يمزح:

- إننى فى وجوده أشعر بمؤشر الترمومتر يرتفع عدة درجات.

فى باريس، كان بازيل الشرقى يعمل مترجما لأشخاص على الرغم من كونهم يتحدثون لغة واحدة، فقد كان مهنيًا بارعًا، لم يكن يترجم ترجمة حرفية ولكنه كان يعرف كيف يخفف من وطأة التعبيرات الجارحة، فهو بمثابة جسر أو حلقة وصل.

كان بازيل يتناقض مع نديم حجر، فلم يكن فى حاجة إلى حلة أو سيف استعراض. حيث إنه لم يكن موظفا عند أحد ولا مرتبطا بأى عقد فهو أكثر حرية وأكثر قدرة من ترجمان القنصل العام فى فرنسا، فقد كان يفسر هو بنفسه فى الظل الجزء الخاص به ألا وهو المزاج.

ألم يكن بازيل شرقيا؟ على العكس، فأنا أعتقد أنه لم يكن هناك من هو أقدر منه على تجسيد "عبقريّة هذا الجنس" كما كان يقول الأجداد، فمعها كانت الترجمة تكتسب مزيدا من النبل لتصبح أكثر دقة وأكثر رقة.

وبذلك فإن الترجمان الحقيقى هو بازيل.

فى عيد ميلاده الحادى والأربعين، قدمت مانويلا لبازيل ساعة أوتوماتيكية فقبلها قبلة حارة ولكن ذلك ضايقها. وفى هذا المساء اكتفى بوضع الساعة فى درجه وظل معصمه يحتفظ بساعته القديمة وهى من طراز جايجر لو كولتر.

لقد أخطأت مانويلا فى اختيار الساعة كهدية له، وهذا ما فهمته فيما بعد وعلى كل حال لم يكن ب ب، يجب أن يقدم له أحد شيئاً أو يتلقى هدية. وكان الألف بالنسبة له أن يؤدي لأحد خدمة غير منتظرة:

- آلو... هنا بازيل باتركانى تخيل أننى قد وجدت بالصدفة لدى بائع كتب قديمة من بولونى الكتاب الذى كنت تبحث عنه...، لا... لا تقلق لا أحد سيشتريه فلقد حفظه البائع لك... لا عفوا... فإن ذلك يسعدنى.

وكانت هناك سعادة أخرى، أكثر رقة ولا تخلو من غموض: كان ب ب يقدم أيضا خدمات غير معلنة؛ فعلى سبيل المثال كان هناك تاجر فى مونمارتر يعانى من أزمة مالية ولم يفهم قط سبب

تحول حال صراف البنك فجأة من التعسف الشديد إلى المرونة وكان ذلك في كريسماس عام ١٩٦٤. ولقد فاجأت مانويلا بازيل وهو يقوم بهذا المعروف الخفى قائلاً للتاجر:

- كل يوم يقدم أب أو أم خدمات لأحد الأبناء دون الشعور بالحاجة إلى إخباره.

فردت مانويلا باندفاع:

- إنك لست أباً أو أمًا.

فسكت هنيهة يفكر ثم وافقها بإيماءة من رأسه وقال:

- هذا صحيح! أنا لا أبالغ ولكنها مواقف فردية ويجب ألا نلجأ إلى ذلك إلا في الضرورة.

ترى هل كانت هذه الخدمة البسيطة من طرف واحد؟ لقد تحدث ابن عمي طويلا مع الصراف الذي على الأرجح أنه وجد فائدة ما لنفسه، فلقد كان هذا الاتفاق ثنائياً، فبازيل وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً ولكنه على الأقل يحتاج لنظرة رجل آخر.

لقد لمست مقولة مانويلا "أنت لست أباً أو أمًا... وترا حساسا عند بازيل، وذلك لأنه لم تكن لديه أية نية للزواج أو لإنجاب أطفال، فلم تكن العائلة تمثل له هدفاً، ومع ذلك كان بازيل يقضى ساعات طويلة لدى جون وجان يهتم بشئون حياتهما ويضحك ويلعب مع

أطفالهما! ففي حين كنت أنا أشعر بالاختناق في هذا الجو العائلي وسط تسميع الدروس وتناثر الألعاب على السجادة، كان بازيل يستمتع به وهو في غاية السعادة.

فقد كان يعشق الفوضى الكبرى التي تسود العلاقات العائلية فهي بمثابة التحدي الهادئ لكل قوانين السوق، حيث لا مجال لمبدأ الأخذ والعطاء، ولا حسابات دقيقة في التبادلات: فإنني آخذ من أبي وأعطى لابني وابني يساعدنني خصوصاً وأنه يشعر بامتثاني لمساعدة جده الذي يعشقه لحد العبادة...

لقد كان تشابك العلاقات العائلية يروق له. وأنا الذي لم أكن أعرف في ذلك الوقت سوى كلمة "استقلال"، كنت أندش عندما أسمعه يمتدح التبعية قائلاً:

- يا سيدى الفيلسوف، لا يوجد شيء أجمل من أن تكون تابعاً لأحد يكون هو نفسه تابعاً لك.

فكما كان بازيل منجذباً للدفء العائلي، كان أيضاً يستاء من الوجه الآخر لهذا الارتباط حتى إنه كان يتساءل:

- لماذا يتحلى الناس بهذا القدر الهائل من الصبر والكرم مع أطفالهم بينما يظلمون ويضيقون ذرعاً ولا يباليون بأطفال غيرهم؟

في الحقيقة لم يكن ب ب يتحدث عن أقارب له، فقد توفي والداه بينما تعيش أختاه عيشة هنيئة مع زوجيهما فى بيروت

ومونتريال. لقد كان يجهل روابط الدم ولم يكن يعرف سوى روابط القلب.

فى تلك السنوات كثيرا ما كان يثار كلام حول "صغار الصينيين" الذين كانوا يمثلون الإنسانية المعذبة، ولكن لم أسمع يوما أن بازيل قد أشفق على هؤلاء الصينيين، والذين يصل عدد من يعانى منهم من الجوع إلى الثلثين، فلم يكن يستطيع الاهتمام بنفسه إلا من خلال صغار الصينيين الذين كانوا يعيشون فى محيطه.

لم يكن عالمه شديد البعد أو القرب ولكن كان عالمه بين الاثنين، حيث إنه كان يقول "عالمى الناس" أو كما كان يقول السيد الفارس بفخر:

"قربينا" وكان بازيل يتساءل:

- ولماذا "قربينا"؟.

لقد أوضح لنا ذلك الرهبان فى القاهرة، ولكننى قد نسيت ولم أعد أفهم مطلقا عبارة "أحب قريبك كنفسك" وإذا كان ذلك يعنى أنه لا بد للمرأة أن يحب نفسه أولاً، فهذا شيء معقول.

لم يكن بازيل من النوع الذى يفرح لمصائب الناس بل على العكس، فكثيراً ما رأيت يفرح لنجاح أشخاص آخرين دون أى رياء أو تصنع: كما لو كان ينتفع هو شخصياً من نجاحهم، ففى ذات مساء فى مونبرنص، كان بازيل يلوح بجريدة اقتصادية ويقول مبتسماً:

- لقد تم اختيار مارينيللى ولوبوك " كمقاولين لهذا العام".
أليس ذلك شيئاً عظيماً؟

فردت مانويلا:

شيء عظيم بالنسبة لهما، ولكن ما شأنك فى ذلك؟

فردت بنبرة ماكرة:

- نحن جميعاً نعزف مقطوعة واحدة.

لقد كان بازيل يرى فى نجاح كل من حوله تقويةً ودعمًا لشبكته. وكان ذلك واضحاً بالنسبة لشركة أوتر تار، فقد سمح توسع وكالة السفريات بتشغيل عدد كبير من المتقدمين من شارع ريمون لوسوران. ولكن هل يمكن اعتبار رد فعله هذا مجرد مصلحة؟ لقد خلق لنفسه حياة لا تعرف الحسد أو الغيرة، فلم تكن لديه الرغبة فى احتراف مهنة ما أو الدخول فى منافسة مع أى إنسان، فلقد اختار أن يبقى فى الظل وهو يجد متعة فى ذلك، حيث كان يسعد بكل صفاء لرؤية أشخاص آخرين يتلألأون فى الأضواء.

كنا فى حانة فى مونبرنص حول جبل من بلح البحر وقد تطرقت المحادثة إلى الخدمات، فإذ ببازيل يقول:

- إننى لا أبحث عن السعادة فالسعادة هنا تصاحب كل عمل أقوم به، فاعترضت قائلاً:

ولكنك يا بازيل قلت لى يوماً إنك تقدم الخدمة وفى ذهنك
الخدمة.

فإنظر لى نظرة ماكرة وهو يرتشف رشفة بيرة مؤكداً:

- نعم... هذا صحيح. إن الناس تهمنى.

وبعد لحظات قال:

- توجد ألف طريقة لتقديم خدمة أيها الفيلسوف، ففى بعض
الأحيان يخدم الفرد نفسه.. أى خدمة ذاتية...

فهل كان بازيل فى حاجة لأن يغرى الناس ويكون محبوباً؟
وهل كان بحاجة لأن يعوض شيئاً ما؟ ولكننى إذا ما أردت أن
أكتشف نفسية ابن عمى، فلن أنتهى إلى شيء.

فلقد كان فى أحد جوانب شخصيته متأثراً بروبان دى بوا،
ذلك الجانب الذى كان يمكنه من التصدى للتحديات وكشف الظلم،
حيث كان يشعر أن لديه إرادة لكسر النظام شديد العقلانية وتوسيع
حدود الممكن وتلك هى الفانتازيا، أو طريقة لتحقيق أحلام طفل بعضاً
سحرية وبساط طائر.

لم يكن ب ب يذكر من ذا الذي أتى بإيفيت برتونيوار إلى شارع ريمون لوسوران؟ فقد كانت تلك السيدة فى الثلاثين من عمرها، وهى ذات طلعة بهية ووجه خال من الزينة كما أن لها نظرة عميقة ولماحة.

وبخلاف زاترين آخرين يلفون ويدورون حول مقاصدهم قبل الإفصاح عنها، كانت إيفيت تمضى إلى هدفها مباشرة: فقد تلقت دعوة الرب وترغب فى أن تصبح راهبة، ولكن الأبواب كانت نعلق أمامها. فبعدما تم رفضها من قبل الدومينيكان وراهبات الناصرة، رفضتها أيضا سيدات سيون دون سبب واضح.

وقالت لبازيل:

- لقد جئت إليك بعدما انقطعت بى السبل، فقد قالوا لى إنك تتمتع بنفوذ كبير.

فلم يكن من ب ب سوى أن كشف عن حيرته فهو بالفعل يعرف مسئولين فى مؤسسات دينية، ولكن مثل هذه الأشياء لا يتم تسويتها عن طريق التوصية، فكل جمعية لديها معايير للقبول خاصة بها.

فرد وهو يفكر بصوت عال:

- ربما أستطيع أن أوصلك بإبراشية "المساعدات للروح القدس"، إنها ليست منغلقة على نفسها إلى حد كبير.

فردت الزائرة:

- لا ستعاملني مثل الأخريات...

- لا بد أن نقصد من هو أعلى.

فسأل بازيل مرتابًا:

- تقصدين مجلس الأنكليكان؟

فقالت:

- لا... بل أعلى.

كتم بازيل ضحكته بصعوبة وقال:

- إذن البابا؟

فنظرت إليه إيفيت نظرة نافذة نافذة بعد لحظات من الصمت وقالت

بصوت مرتعش:

- أعلى.

فتلاشت الابتسامة من على شفتي بازيل وقال:

- انتظري، إننى...

فقاطعته بإيماءة من رأسها وقالت:

- نعم هو وحده الذى يستطيع أن يسمح لى أن أكون فى

خدمته.

كان بازيل يحاول أن يفكر وهو يلعب بقلمه، فقد رأى أناسا شتى. فالبعض كانوا يعتبرونه بمثابة وكالة للزواج، وكان آخرون يرونه منجماً أو عرافاً، بل وجد نفسه قائد مدفعية يطلب منه البعض التحدث سرىا مع وزير الدفاع فى مسألة تتعلق ببيع قطعة أرض عسكرية كانت مثارا للجدل فى منطقة ميلون، ليتدخل لدى الوزير المختص! وأنقذ بازيل الأرض.... نعم لقد استمع إليه الوزير، وطلبات أخرى عجيبة ولكن أبدا لم يطلب أحد منه أن يتوسط لدى الرب!

تظاهر بازيل بأنه لم يفهم وقال:

- إننى لا أستطيع إدراك ما الذى تنتظرينه منى.

- بيد أن الأمر بسيط، يقال إنك لا تقاوم، وإننى لأشعر بذلك

فمنذ دخولى هذه الغرفة أحسست بدفء غريب يملؤنى.

وجلست ترجوه بلهجة المتوسلين:

- أرجوك توجه إلى الرب وحدثه بشأنى!

ونهضت لتفك زرارين من فستانها وتتركه لينزلق على أردافها حتى بدت عارية! وكان خيال جسدها يظهر على باب النافذة فنظر بازيل إليه مرعوبا... فلها نهدان غاية فى الروعة، وأرداف ممثلة... وأشياء أخرى، وإذا بخادمة الرب تقرب من النسوة وتقول: "خذنى فإننى له".

ففكر لثوان وتذكر الشخصين أو الثلاثة الموجودين فى صالة الانتظار، فهذه المجنونة من أجل الوصول إلى الرب، كانت ستهب نفسها للشيطان، فإذا طلب منها أن ترتدى ملابسها كان يمكن أن يودى بها ذلك إلى حالة هستيرية، لذا كان ينبغى التوجه إليها بكلمات منتقاة... فتبادر إلى ذهنه فجأة جملة من الإنجيل ولا يعرف لماذا قالها:

- ليس اليوم ولا الساعة.

فترددت إيفيت للحظة ثم بدأت فى الكلام بلهجة حادة:

فتمتم بازيل وهو يغض بصره وهى ترتدى ملابسها:

- بالتأكيد لك مستشار روحانى؟

فأعطته اسم قسيس فى إبراهيمية سان ميدار فى الحى الخامس،
فقال لها وهو يصاحبها فى هدوء إلى باب الخروج:
- سوف أتصل به وأتحدث معه فى هذا الأمر وأبلغك
الأخبار.

عندما حكى ابن عمى لنا هذا المشهد، بكيت من الضحك. أما
روجيه مارينيللى فقد تظاهر بالغيرة قائلاً:

- تقول "جسم رائع" أليس كذلك؟ من الواضح كما فهمت أنك
ستتابع الأمر ولكن فى سان ميدار ربما يرفضون أن يسلموك
الملف...

تظاهر بازيل بالابتسام وهو يلعب فى ساعته، حيث استحوذت
هذه المغامرة على تفكيره.

وفى الأسابيع التالية، شعرت للمرة الأولى أن بازيل يسيطر
عليه قلق حاد. حيث كانت نظراته مليئة ليس فقط بالخوف بل الرعب
أيضاً، فما كان يظنه البعض حول مدى قدرته يصيبه بالدوار، فهل
وعى فجأة التصاعد اللانهائى واللامحدود لشبكتة؟

فى بداية عام ١٩٥٦، توسعت شبكة بازيل توسعاً كبيراً وانتقل بازيل شيئاً فشيئاً إلى نطاق آخر، فإذا بحرفية البدائيات تتحول إلى نشاط اقتصادى ضخم. وأحياناً كان يتلقى مكالمات من أماكن بعيدة ولأغراض شتى فهناك أبراشية ريفية فى بلدة توجو تطلب كتباً، أو مؤسسة أمريكية ترغب فى تمويل مشروعات للمعوقين ذهنيّاً، أو يطلبه رجل أعمال متعطل فى مطار سيدنى وفى حاجة ماسة لمكان على طائرة الخطوط الجوية الفرنسية... ودون النظر إلى الإجراءات الروتينية وجد السيد بيير لوساج نفسه مضطراً للذهاب إلى روتردام لحضور ندوة علم المحيطات وأدرك فى آخر لحظة أنه يحتاج إلى حارس لشقته. أما السيد زيمبرباخ، فكان يبكى على الهاتف للمرة المائة ليسدد دينه.

كان تناقل الأحاديث فعالاً للغاية: فكما نجح بازيل فى تقديم الخدمات زاد الطلب عليه. ومنذ ذلك الحين، كان وجود بازيل فى شارع ريمون لوسوران يمتد حتى الساعة الثامنة أو التاسعة مساءً، وأحياناً كان ينتهى به الحال إلى تسوية بعض أعماله فى منزله، حتى إن جرس التليفون لم يكن يكف عن الرن حتى فى عطلة نهاية الأسبوع.

وفي فبراير، أصيب بازيل بذبحة حادة فعالجها بتناول مختلف العقاقير دون أن يأخذ قسطاً من الراحة، وكنا أنا ومانويلا نلاحظ في شيء من القلق تلك الدوامة التي يدور فيها بازيل. ويبدو أن خيوط الشبكة التي نسجها ب ب كانت تزداد كل يوم حتى كادت تخنقه. حيث كان يذكرني بأحد الكتب المصورة في طفولتي، حينما كنا نرى جاليفر مقيداً على الأرض بعدد هائل من الروابط الصغيرة التي قامت بتثبيتها جماعة الليليبيوتيان.

فمنذ متى أصبحت الروابط الاجتماعية تشكل عبءاً؟ فهل تجاوز الحد المسموح به أم بالغ قليلاً؟ فلقد بدأ هو نفسه يشعر بتقل شبكته الشاسعة. وقد اضطر في يوم ما، نظراً لكثرة الاتصالات الهاتفية التي كانت تحول دون إتمام مقابلاته، أن يحدد بعض المقابلات في أحد المقاهي كما كان يفعل منذ اثني عشر عاماً.

وذاذ مساء لحق بنا وهو عكر المزاج فقد وصل من الضفة اليمنى بتاكسي كان قد ركب، متعجلاً وشارداً، حيث قال "مساء الخير يا أستاذ"، فإذا به يفاجأ بصوت يرد عليه في شيء من الضيق "مساء الخير يا مدام" صحيح أن السائقة كان لها هيئة رجل، لكن ذلك لا يغفر له عدم انتباهه لذلك.

لم يعرف حينها بازيل كيف يتصرف، وكان يخشى أن يزيد الأمور سوءاً عن طريق الاعتذار، فتظاهر أنه لم يسمع. وفي

الطريق كان جالسًا دون حراك في مقعده يرقب الصمت؛ فقد كان مغتاطًا من نفسه، أما السيدة فكانت تقود بسرعة بل بأقصى سرعة كما لو كانت تنتقم لنفسها. وعند الوصول قبلت الأجر على مضض على الرغم من البقشيش الكبير الذي تركه لها وشكرها بكل حرارة ممكنة ولكن نبرته لم تكن تدل على ذلك.

فقلت له مانويلا:

- لا تقلق ستتغلب المرأة على الأمر، فهؤلاء النساء يقاومن الشدائد، أما أنت فإنك متعب للغاية فهذه المرة الثانية التي تصاب فيها بذبحة خلال عدة أسابيع، فاحترس يا بازيل وإلا سينتهي بك الحال إلى ما لا ترضاه.

وفي أثناء العشاء نجحنا في إقناعه بحاجته إلى مساعدة، ودارت مناقشة غامضة بعض الشيء حول سير العمل في مكتب شارع ريمون لوسوران، حيث بدأت مانويلا في بيان أهمية أجهزة الرد الآلي التي بدأت بعض المؤسسات في استخدامها حتى إن معهد الكونسرفتوار قام بشراء جهاز له بالفعل، واتفقنا في النهاية أننا سنتأوب أنا ومانويلا على الذهاب إلى هناك مرتين في الأسبوع في فترة ما بعد الظهر وذلك لضمان استمرار العمل.

بدأ هذا النظام في بداية الربيع، حيث قدم لنا ابن عمي مفكراته التليفونية، كان لديه ثمانى مفكرات مفتوحة طوال هذه السنوات

وجميعها ذات زوايا مبينة للحروف الأبجدية وذات جلدة مضلعة تتميز بألوانها فالأول أسود والثاني أخضر والثالث بنى فاتح إلخ... ولكن درجة بلاء كل واحدة منها كانت تسمح نسبياً بترتيبها ترتيباً زمنياً.

ففى المفكرة الأولى كان أول اسم فى حرف الدال خاصاً بالسيد آدمون دورمينيوي، ١١ ميدان فوندوم، وكذلك كان اسم ابن أخيه طبيب الأعصاب جون بيير دورمينيوي مدوناً فى وسط هذه الصفحة بعنوان مشطوب وعنوان جديد فى شارع ماليزارب.

ومن مفكرة لأخرى كنا نستطيع أن نستكشف أبعاد الشبكة الخاصة بب ب، فإذا كان المجلد الأول لا يحوى سوى عناوين فى باريس مع كثير من الأسماء الشرقية، فإن المجلدات التالية كانت تتسع أكثر فأكثر لتشمل الضواحي والبلدان الأخرى، ولا توجد أية إشارة إلى الخدمات التى تم تقديمها أو الحصول عليها، حتى أنه تمتم قائلاً:

- إن هذه مفكرات تليفونية وليست بسجلات للحسابات.

وجدنا أيضاً العديد من بطاقات التعارف التى قد تصل إلى الآلاف كانت مكدسة فى علب أحذية موضوعة على الرف، فمن الواضح أن بازيل لم يكن يستخدمها، فهل كان يحتفظ بها احتراماً لمحدثيه فحسب؟

إن أحدا غيره كان سيضعها في ملفات أو يربتها في بطاقات ولكن ذلك لم يكن دأب بازيل! حيث إنه كان يكتفي بثمانى مفكرات معتمدا كل الاعتماد على ذاكرته القوية.

ومنذ الأسبوع الأول فشل نظامنا فشلا ذريعا، فلم يكن المتصلون يرغبون سوى فى التحدث إلى بازيل باتركانى وكانوا يقولون "إن الأمر شخصى" وأحيانا يرفضون حتى ترك أسمائهم.

ولم يكن بوسعنا إلا أن ننقل الرسائل إلى ب ب، فلم نكن نرد على العروض أو الطلبات، فلم تكن هذه المفكرات الأبجدية تسعفنا فى شيء. بازيل فقط هو الذى يعرف كيف يتصرف، فهو يتذكر خدمة كانت قد قدمت له منذ عدة شهور أو عدة سنوات. ومن أجل مساعدة (أ)، أو (ب) لا أحد منا يمكنه طلب (س) أو (ص) أو (ع)، فزمام الأمور كانت فى يده، ودونه لا شيء ينجز. فها هو عدو الوحدة هذا على النقيض ينسج شبكة يتمركز وحده على قمته.

كانت مانويلا عندما تفرغ من عملها تحضر الناي، وكانت تعزف فى صالة الانتظار بينما كنت أتصفح المفكرات أو أفتش فى علب الأحذية دون قصد محدد.

وبعد الظهر، جذبنى صوت موسيقى أجهلها فلحقت بمانويلا فى صالة الانتظار حيث كانت واقفة وكل تركيزها على آلتها. فتأثرت حتى إننى ذرفت الدمع وانتابتنى رغبة ملحة فى أن أضعها

بين ذراعى فأدركت وجودى ونظرت إلى خلسة وهى تعزف. فترى
هل أدركت تأثرى؟

وفكرت فجأة فى بازيل ودون أن أنبس بكلمة عدت إلى
المكتب تخنقنى العبرات فى حين كانت مانويلا تواصل عزفها فى
الغرفة الأخرى.

وفى شهر مايو عرض مجموعة من الأصدقاء على بازيل أن
يلحق بهم فى فيلا بونيفا فى جزيرة القرص، وشجعناه أنا ومانويلا
على قبول هذه الدعوة. أما فيما يتعلق بمكتب شارع ريمون
لوسوران، كنا سنتوقف عن الذهاب، لأن ذهابنا لا يجدى كثيرا. فتبأ
للهاتف الذى يرن فى الفضاء.

وبعد اثنى عشر يوما، عاد بازيل من جزيرة القرص وهو
عازم على المحافظة على صحته. ولكى يؤكد لنا ذلك اصطحبنا فى
أحد أيام الاثنين داخل عربة مكشوفة - كان قد أخذها من صديق له
صاحب جراج - إلى بلدة فونتانبلو. وقضينا وقتا ممتعا؛ فكنا نجرى
ونلعب بين الصخور كالأطفال وكافأتنا مانويلا بعزف سيمفونية
لموتزرت وهى جالسة تحت شجرة زان عمرها مائة عام.

وبعد شهر، عاود هذا الإيقاع المमित ظهوره، وأصيب بازيل
بذبحة مرة أخرى وكان يشعر بالآلام فى مفاصله، ولكنه لم يكن

يستطيع أن يتجاهل كل هذه الطلبات؛ بل إنه لم يكن يرغب في ذلك
وكان يردد قائلاً:

- إن ذلك يسعدنى.

ولكن شيئاً فشيئاً، كان يبدو ذلك وكأنه واجب. كانت أعصابه
مشدودة وكان يغضب من لا شيء. ولسوء حظ مسئول كبير فى
الضرائب أنه اعتذر فى التليفون لعدم تمكنه من مراجعة ملف، فإذ
ببازيل يثور عليه ثورة عنيفة. أما بالنسبة للسيد إرنست زيمبرباخ،
فقد تلقى للمرة الأولى رد فعل عاصفاً من بازيل الذى قال له:

- لقد ضقت ذرعاً بعروضك! لا أريد شيئاً ولا شيء،
أسمعتنى؟ ولا حتى رباط. إن شكواك ترهقنى فلا تعذب نفسك أكثر
من ذلك، اخرج من محلك وروّح عن نفسك بالله عليك! فإنك بانس...

وفى شارع ريمون لوسوران كانت قاعة الانتظار مكتظة
بالناس، فلم تكن هناك مقاعد كافية للأفراد الذين كانوا أحياناً
يتناوشون للدخول أولاً، وعلى السلام كان الصعود والنزول مستمراً
ولم يكف الكلب فى الدور الثالث عن النباح وبدأ الجيران فى
الشكوى. والمصيبة الكبرى أن بازيل كان قد تم استدعاؤه من قبل
قسم الشرطة التابع للحى العشرين وتم إحضار لوكو إلى القسم مغلول
اليدين بعد مشاجرة مع رجال الشرطة. وعندما كان ابن عمى يستعد
للنوم، ارتدى ملابسه مرة أخرى وركب سيارة أجرة عقب اتصال

هاتفى أجراه مع أحد معارفه القديمة فى الشرطة القضائية وفى طريق العودة قال للوكو:

- كنت تستحق أن تبقى فى السجن، لا تفعل ذلك مرة أخرى،
أسمع؟

كان ب ب متعبا وكانت ذاكرته تخونه؛ فلم يعد يتذكر أرقام تليفونات يستخدمها باستمرار، بل كان ينبغي له أن يبحث عنها فى مفكراته. فى الماضى لم يكن ليختلط عليه الأمر مطلقا فيخلط بين صاحبة مخبز نوبى التى جاءت لزيارته مرتين أو ثلاث، وبين زوجة أخى جون أورونج التى قابلها فى الشارع، فتأثر من هذا الموقف تأثرا كبيرا.

ومنذ ذلك الحين، كنت أراه فى صورة جديدة وكأنه رجل أتملته العلاقات، فأصبح شرها، دائم القلب والهوائية.

فترى هل كان يهرب من شيء؟ فقد كان فى أحلامه يجد نفسه وسط الكلاب النابحة فى وول استريت، لتعلن عن عروض وطلبات تمثل فى نظره قمة العبث.

بيدو أن لا شيء يستطيع أن يمنع هذه الآلة الكاسحة من الدوران. فشبكة بازيل تكبر وتتضخم، حيث إن مشروعه لم يكن بالشيء الذى يمكن بيعه أو التنازل عنه أو إعلان إفلاسه، فلم يكن يتسنى له عمل الحساب الختامى، ولكن على الأقل كان من الممكن

أن يتوقف عن تلقى الطلبات ولكن كيف يتجاهل كل هذه العروض -
كعروض التوظيف والسكن والخدمات المختلفة التي كانت تنهال
عليه؟ كان يعذبه شعور بالمسئولية والواجب بينما كانت توجهه دائما
فطرته وغريزته.

وقبل عدة شهور، عندما كان يودع سامى دبور أمام مطعم
كريون، قال ب ب فى هدوء:

- أنت الآن قد أصبحت غنيا، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ فلا
أحد حتى روكلر يستطيع ارتداء أكثر من حذاء فى المرة الواحدة.
ومنذ هذه اللحظة بدا هو نفسه، كالثرى الذى تسحقه ثروته،
فهو عاجز عن التخلص منها، حيث أصبح مليونيرًا وفى طريقه لا
محالة لأن يكون مليارديرا.

وفى يوم من أيام الأحد من شهر أكتوبر أصيب بـ بـ بحمى شديدة، واضطر أن يقضى اليوم فى بيته. كانت هذه هى المرة الأولى التى يرقد فيها بازيل فى سريره منذ أن أصيب بالحصبة فى العاشرة من عمره! وفى اليوم التالى كان يقف على قدميه ولكنه لم يحتمل الوقوف لفترة طويلة، فاضطر أن يرقد ثانية، أما مانويلا فقد أفلقها شحوب وجهه فأصرت على استدعاء الطبيب الذى أوصى بالراحة وبعض المقويات.

وفى الأيام التالية، كان بازيل يعانى من آلام فى المفاصل وقد صاحب شحوبه المستمر، حالة من الوهن العام غيرت كثيرًا من ملامحه، ولكنه لم يكن يريد أن يُعَلَّق أنشطته.

وفى ذات صباح، لاحظ نقطة دم على وسادته، واستطاع الطبيب الذى كان يسكن فى العمارة المجاورة أن يحضر قبل الذهاب لعمله. وقد لاحظ وجود قرحة فى الفم وتضخم فى الغدد، فطلب من بـ بـ أن يخلع ملابسه، ثم بدأ يجس لوقت طويل منطقة الكبد وقال له:

- ربما لا يوجد شيء خطير. عينة دم ستسمح لنا بالتأكد من ذلك، سأرسل لك ممرضا.

وفي اليوم التالي بعد الظهر اتصل الطبيب ببازيل وأخبره قائلا:

- لقد سلمنى معمل التحاليل لتوه نتائج التحاليل، لديك نسبة مرتفعة جدا وغير طبيعية من كرات الدم البيضاء. يلزم أن تخضع لفحص أكثر دقة، ولكن فى مستشفى وفى قسم متخصص، فى هذه الحالات فأنا أود أن تكون بين أيدي أمينة.

إن بازيل بنفسه هو الذى استدعى البروفسور فالادييه الذى أصبح صديقه بعد تبادل خدمات على مر السنين، ولقد كان هذا المتخصص البارز فى أمراض الدم يحضر مؤتمرا فى ليون، وما لبثت سكرتيرته أن أخبرته بالاتصال، حتى قام بالاتصال بطبيب شارع جيه لوساك، ثم قرر أن يقدم عودته إلى باريس. وفى اليوم التالى استقبل ابن عمى فى المستشفى فى قسم أمراض الدم بمستشفى سان لوى، حيث أجرى له بزل للنخاع الشوكى.

لم يكن البروفسور فالادييه من أولئك الذين يكثرون الحديث وخاصة مع شخص مثل بازيل باتركانى، حيث قال بعدما جلس على حافة السرير:

- إن النتائج ليست طيبة.

فتساءل بازيل بصوت مرتجف:

- سرطان؟

- نعم لوكميا ولكنها تنتشر بسرعة فائقة، وسوف نتصدى لها على الفور.

ولكن البروفسور فالادييه سارع بالتحدث بنبرة مطمئنة تميل إلى المرح. وفجأة شعر بازيل وكأنه ألقى في وسط الصحراء عند الكيلو ٦٥ في طريق الإسكندرية ...

ودون الدخول في التفاصيل، شرح له فالادييه ضرورة تدمير النخاع المريض وزرع نخاع سليم.

فسأل بازيل:

- هل هناك فرص للشفاء.

فرد عليه:

- نعم بكل تأكيد.

ولكن في هذا النوع من الأمراض لا بد من العناية والإرادة، سأخذ على عاتقي مسألة العناية، أما الإرادة فأنا أثق بك.

عندما لفظ بازيل كلمة "لوكيميا"، شحب وجه مانويلا فجأة ولم تستطع إخفاء ارتجاف شفيتها... أما بالنسبة لى، فقد كنت أعتقد أن رجلا قويا مثل بازيل لن ينهار. قام البروفسور فالاديبه بإخلاء أفضل غرفة في قسمه. وقد لاحظ جميع الطاقم أن الرئيس يولى اهتماما خاصا لهذا المريض وكانوا يتصرفون معه وفقا لذلك. وعلى أية حال فإن كلا من الممرضين ومساعدتهم رجالا ونساء، لم يستطيعوا مقاومة جاذبية بازيل باتركانى.

هذا وقد تقرر وضع جهاز الرد الآلى سواء فى المنزل أو فى مكتب شارع ريمون لوسوران، وذلك حتى لا تتراكم الاتصالات الهاتفية التى كانت ستظل دون رد على أى حال من الأحوال. ولكن فى المقابل كان يجب على المرور يوميا على هذين العنوانين لكى آخذ البريد وأطلع عليه وأفرزه وأعلم ابن عمى بالخطابات الأكثر أهمية.

ومن وقت لآخر كان يقع فى يدي مظروف غير منتظر. مثل دعوة زواج الأنسة لورانس موبرجيه والسيد جون برترون

دو فلورى فى كنيسة سان بيير فى مدينة شايبو. حيث يقيم القداس قس يسوعى من أقارب العريس. وبحركة لا إرادية شممت بطاقة الدعوة وحاولت أن أميز رائحة العطر المختلطة برائحة دخان التبغ هذا الذى جعلنى اضطرب.

كنت أجهل أن هناك شخصيات شهيرة مثل هذا الوزير المؤيد للمذهب الديجولى أو هذه الروائية ذائعة الصيت يمكن أن تتبادل الحديث مع بازيل على هذا النحو التلقائى، ولكن هناك الكثير من الخطابات المكتوبة بأسلوب يتسم بالعبارة والتواضع والحذر، والتي لا تخطئ فى التعبير عن حال كاتبها.

وذات يوم، ودون أن أقصد فتحت ظرفا مكتوبا عليه "شخصى" يحتوى على ست ورقات مكتوبة بخط دقيق وبتوقيع جونيفاف آش مالكة صالون الشاي فى الحى السابع عشر، ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقرأها حتى النهاية، فقد كان خطابا مليئا بإشارات وتساؤلات وعبارات عتاب.

فقلت لبازيل وأنا أعطيه الظرف المفتوح:

- أنا آسف، لم أر كلمة "شخصى".

ولدى تعرفه على الخط ابتسم وقال:

- مسكينة جونيفاف! فمن أجل أن تبعدنى عن أى امرأة دونها

كانت على استعداد أن تطعمنى كل يوم البابا بالويسكى والميل فوى.

ولكن هل لكى تكتسب قدرا من الأهمية أخبرت صديقة طبية الأمراض الجلدية، منذ عام ونصف بازيل بزيارتي؟ ومع ذلك أتذكر جيدا الوصف الذى وصفته به: رجل يختال بسلطته، فاسد، يتعامل مع الناس كما لو كانوا عرائس متحركة.

وأضافت قائلة: "وقد أكون أنا أيضا إحدى هذه العرائس".

ربما قصدت أنها عروسة عاشقة...

أراد فالاديه بدء العلاج الكيميائى على الفور. وفى غضون ثلاثة أسابيع، عاش بازيل بألمه فى عزلة ليست كاملة، حيث كان يمكنه الاتصال تليفونيا، أما الزيارات فكانت محدودة.

وللدخول إلى غرفته كان يتعين علينا غسل أيدينا بعناية وارتداء معطف خاص وكذلك قناع "ماسك".

وسرعان ما تساقط شعره كما كان يعانى من بعض اضطرابات فى الجهاز الهضمى والتهاب متكرر فى الغشاء المخاطى بالفم. وكانوا يضعون شاشا بالكحول على ذراعيه المتورمين من كثرة الحقن، وذلك لحماية الأوردة ولكن لا شيء مما يحدث كان ينقص من روح الدعابة التى يتمتع بها. فقد كانت المستشفى توفر له الراحة وتعفيه من الخدمات الكثيرة التى يتعين عليه تقديمها. حتى إنه كان يبتسم ويتلاعب بالكلمات قائلا:

-- أنا خارج الخدمة.

ولكن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا، فبعد يومين من دخوله مستشفى سان لوى، تبادر إلى ذهن ممرضة، كانت تنتظر دون جدوى مكانًا لابنتها فى حضانة ما، أن تتحدث عن مشكلتها أمامه، وفى اليوم التالى وجدت الطفلة مكانًا لها فى إحدى الحضانات.

وكانت معرفته بالعاملين داخل المستشفى تزداد يوما بعد آخر حتى أصبح يقوم تلقائيا بدور الوسيط بينهم.

فكان يقول مندهشًا:

- هؤلاء الناس الذين يحتكون بعضهم ببعض كل يوم غالبًا ما يجهل الواحد منهم كل شيء عن الآخر!

ألم تكن هناك سيارة مستعملة معروضة للبيع فى الطابق الأول لدى أحد موظفى الإدارة، وفى الوقت نفسه يذهب طبيب التخدير المساعد لبحث عنها بعيدًا وهى على مقربة منه؟ كان يكفى فقط أن تطلب من السيد باتركانى، فقد شهدت الغرفة رقم (٣) مكانة جليلة لدى العاملين وكذلك لدى المرضى. وحتى مسئول المالية فى المستشفى، عندما كان يتعين عليه السفر بسرعة إلى إسبانيا استقاد من وساطة بازيل حيث نصحه البروفسور فالاديه قائلا:

- للحصول على "باسبور" فى نفسه اليوم نفسه أيها القس، فإننى لا أرى سوى حلين إما تدخل إلهى أو تدخل الحجرة رقم (٣).

عندما ركز بازيل انتباهه على محيط المستشفى المحدود، رجعت به الذاكرة اثني عشر عاما حينما كانت شبكته تقتصر على حفنة من الأشخاص. وكم كانت سعادته عندما يستطيع التدخل في هدوء ولديه من الوقت ما يكفي، مستعينا بخبرته السابقة وعلاقاته التي لا تحصى. إنه حقا لمزاج! فلقد كان أدائه يشبه أداء أستاذ في علم الفلسفة يحاول اجتياز امتحان البكالوريا.

كان الحراك والعجلة أكثر ما يلفت انتباهه في عالم المعاطف البيضاء هذا، فهو الذي كان دائما يعطى لكل شيء حقه ويتمتع بكامل وقته، يرى من الآن فصاعدا، المعالجين وهم يجرون من مكان لآخر وكأنهم ندل المقاهي الفرنسية، فمرات المستشفى كانت تعج بضجيج هرولة المرضى وكأنها خيول تركض. إلا أن هذه الحركة السريعة لم تمنع البطء الشديد غير المفهوم والانتظار اللانهائي. لم يكن لدى بازيل أي سبب في أن يشكو من البطء أو الانتظار، لأنه منذ البداية كان يعامل معاملة مميزة لم تلبث أن تأكدت، ولكنه كان يلاحظ المرضى من حوله مجبرين على الصبر...

فالمرضى يرنون الجرس وينتظرون، ولم يكن الحال كما في شارع ريمون لوسوران "رن وادخل" ولكن "رن وانتظر". كان هؤلاء الرجال والنساء يقضون جزءا من نهارهم ينتظرون حمام الصباح وكذلك زيارة الأطباء المعالجين والوجبات التي كانوا يبتلعونها دون شهية، وكذلك اختراق الأدوية المستمر لأجسامهم والتعدي على خصوصياتهم.

كان الخضوع للمعالجين يثير لدى بازيل مشاعر مختلطة.
فإذا كان يتألم من ذلك فشأنه شأن جميع المرضى، أما هو فكان يحب
أن يتصرفوا معه كطفل، حيث كان هذا الخضوع المحمود يجعله
مرتاح البال، وكان يقول:

- قد يشكل الخضوع للآخرين سرورا، ولكن ما هو غير
محتمل هو الخضوع لنظرات الآخرين وحكمهم.

ولكى نروّح عنه فى حجرته بالمستشفى، كنا من وقت
لآخر نلعب لعبته المفضلة (سكرابل) فى أحد الأيام فى فترة ما
بعد الظهيرة وضع أربعة حروف على السياج وهو يقول فى
سرور واضح:

- ها هى أجمل كلمة فى اللغة الفرنسية!
فقال ماويل: حسناً وهى تقرأ كلمة (مضيف).
فسأل بازيل:

- هل تعرفين معنى كلمة (مضيف)؟
فهزت كتفها وقالت:
- ذلك الذى يدعو.

فقلت بتلقائية:

- لا ذلك الذى يُدعى.

كان بازيل يشرب لبنا فقال:

- اتفقا إذن.

كانت هذه الكلمة ذات المعنى المزدوج تروق له، فقد كانت
تعبّر بشكل ما عن حقيقة أمره.

ذات مساء حكى لنا بازيل قائلاً:

- منذ سن السابعة لم أكن أسمع سوى كلمة "برافو".

كان يقصد بذلك أن يقول إنه لم يكن يسمع كلمة "أحبك"...

فى أول الأمر كانوا يقولون له إنهما مسافران فى "رحلة طويلة"، ولم يعرف إلا بعد ثلاثة أشهر عن المأساة التى أودت بحياة والديه فى حادث سيارة على الطريق الصحراوى الجديد بين القاهرة والإسكندرية، حيث انقلبت بهما سيارتهما البان هارد السوداء عدة مرات قبل أن تشتعل. وعندما اكتشفها البدو بعد عدة ساعات، كان الدخان لا يزال يتصاعد منها، أما الجثتان اللتان بداخلها فكانتا غير واضحتى المعالم.

حدث ذلك ولم يكن قد مضى وقت طويل على الاحتفال بعيد ميلاد بازيل السابع، حيث أهدى له والداه ساعة ثمينة مزودة بذرّين، فاندفع نحوهما يقبلهما. وكانت ضخمة على معصمه الصغير ولكنها كانت تملؤه فخراً، وبعد هذا الحادث الأليم، استضافته ليديا وزوجها المحامى بقطر دبور هو وأختاه. وكان لهذين الزوجين اللذين يسكنان

في فيلا كبيرة بمصر الجديدة، سبعة أولاد ويمكن القول إن في هذا المنزل الجديد تبدد الدفء العاطفي فلا شيء كان ينقص بازيل سوى أن يأخذه والده بين ذراعيه أو يرفعه في الهواء ليتلقاه بضحكة عالية ولا شيء... أيضاً سوى أن تغمره والدته بالقبلات وتضمه إلى صدرها حتى لا يكاد يلتقط أنفاسه.

وهنا عند الخالة ليديا والعم بقطر، كان بازيل متى يشعر بالحزن يستولى على قلبه، يذهب ليخفي دموعه في أعماق الحديقة، حيث كان يجلس القرفصاء، تلك الحديقة التي كانت فيما مضى برجاً للحمام؛ ولكنه تهدم وتحول. وهناك كان يسمع دقائق الساعة وكأنها دقائق قلبه، وكانت هذه التهمة تعطيه قوة وشجاعة حتى وإن كانت هذه "الرحلة الطويلة" ستمثل له نهاية أو حداً.

فوالداه اللذان في السماء كانا قد أخبراه بذلك وهو لا يشك في قولهما، فقد كانا من ذلك العالم السماوي يشجعانه ويساندانه. وتَجَسَّد حذاه على والديه في أن يتمتع بكل لحظة من لحظات حياته، ولم تتوقف قط رغبته الشديدة في الحياة، بل كانت تصل أحياناً إلى حد السعار. فقد كانوا يقولون له:

- والداك المساكين!

ولماذا مساكين؟ فهو يراها كما في الصورة المعلقة فوق سريره، شابين جميلين يتحليان بالابتسامة ويرتديان معاطف البلاد

الباردة التي كانت تناسبهما تماما، بعد عودتهما من شهر العسل فى سويسرا. وعلى الرغم من أن الخالة ليديا والعم بقطر كانا يتناقضان ويضع عليهما الزمان بصماته، فإن والديه لم يتغيرا فها هما شابان جميلان ومبتسمان، وسيظلان كذلك إلى الأبد. لقد كان والداه يثيران إعجابه وأبدا لن يخيبا آماله.

وبعد ما كبر لم يسع بازيل كثيرا إلى البحث فى تاريخ والده - شاب مستهتر ومسرف - ولا فى تاريخ أمه التى ولدت وفى فمها ملعقة من فضة، فهو بلا شك كان يخشى أن يشوه هذه الصورة المثالية. كان يتمسك بالصورة التى تعرض والديه بالمعاطف الثقيلة التى كانت معلقة فى مدخل شقته فى باريس وفى حجرة نومه وفى مكتب شارع ريمون لوسوران، حيث كانت هذه الصورة هى الصورة الرسمية إذا صح القول.

ولبنيته القوية فهو يُعد طفلا بلا مشاكل، كان يذهب إلى مدرسة جيدة ويمارس أحيانا أعمال الكشافة ويذهب إلى نادى إسبورتج فى منطقة هيليوبولس ويندمج فى محيط العائلة وينضم إلى حفلات الغداء فى أيام الأحاد، وأيضا يقضى الإجازة فى الإسكندرية... كل ذلك كان يسمح له بأن يعبر فترات المراهقة الصعبة بشكل أفضل من غيره. وكان يقوم بما يتبادر إلى ذهنه وهو على قناعة تامة من أن والديه فى السماء يوافقانه. ولا أحد يستطيع أن يثبت له غير ذلك؟ فكونه يتيمًا كان يجعله أكثر حرية من أولاد

خالته. ولا بد أن نعترف أن كلا من خالته وزوجها، كانا مشغولين تماماً بأولادهما الذين كانوا يستحوذون على اهتمامهما إلى حد كبير. فسامى على وجه الخصوص قد تعرض للرفد المتتالي من ثلاث مدارس مختلفة بالقاهرة بسبب الغش مرة ولعبة الراكث مرة أخرى، لكن المرة الثالثة قد تَعَدَّتْ هذه الحدود، فقد كانت إثر فضح أمر المراقب المالي، الذى ضبطه سامى خلف أبواب المطابخ فى وضع مخل مع خادمة...

إن المتابعة التى حظى بها بازيل كانت ثقل عن تلك التى يحظى بها غيره ممن هم فى مثل سنه، ولكن هذا لا يعنى أنه كان مهملاً كما أنه عرف كيف يستثمر هذا الوضع؛ فاستقلاله النسبى قد أعطاه نضوجاً مبكراً حتى وإن كان فى مشاعره لا يزال طفلاً. وفى سن السادسة عشرة لدى معرفته بأول حبيبة سمع كلمات حب حقيقية ومنذ ذلك الحين أخذت تزداد رغبته فى الإغراء، هذه الرغبة التى تمتزج بالبحث الدائم عن العلاقات.

"والداك المساكين..." فحتى سن البلوغ لم يكن بـ ب يرى فى مصر سوى نظرات الشفقة، وقطعا كان يريد أن يهرب من هذه النظرات بمجيئه إلى باريس وحيداً يتيمًا.

لقد كانت هياكل السيارات المحطمة إثر الحوادث متناثرة على الطريق الصحراوى تحرقها الشمس. ولكن عند الكيلو ٦٥ لم يكن

يتبقى شيء من سيارة البانهارد السوداء، حيث رُفع حطامها المحترق بمبادرة من العائلة. كان هذا الطريق يحزن بازيل، وكل صيف عندما يأخذ هذا الطريق كان يتوقف عند المكان المفترض أنه مكان الحادث، ويخطو عنده عدة خطوات في الصحراء التي تجتاحها رياح دافئة، بحثا عن مقبرة خيالية، حيث كانت هذه المقبرة تقلب كيانه.

لقد تركاه والداه رغما عنهما. وعندما اختار هو الحياة، قرر ألا يبقى وحيدا أبدا، أليس ذلك ما كان يقوده إلى الهرب من السلطة؟ فالرئيس لا يستطيع أن يعتمد إلا على نفسه وهناك مئات الأمثلة لرجال سياسة أو أصحاب أعمال من حوله يؤكدون ذلك. فنسلطته الواسعة لا يمارسها إلا مع الآخرين أو من خلالهم.

لذا فقد اختار أن يعيش ولكن الموت لم يكف عن ملاحقته، وصديقاته المتعاقبات لم تفهم لماذا يبدو وكأنه يضع عراقيل أمام العلاقة القائمة لإنهائها، فإذا كان بازيل يرفض أن يرتبط بامرأة، فوراء ذلك خوفه من أن يفقدها؛ فقد قال لمانويلا:

- أبدا لن يكون لى أولاد وذلك لأنهم قد يتألمون لرؤية والديهما "يرحلان في رحلة"، لن أغامر أبدا فأمنح الحياة لأطفال مصيرهم اليتيم.

وفى صباح ذات يوم، حضر لوكو إلى المستشفى مطأطئ الرأس بعدما فصل للغياب المتكرر من المؤسسة التي عينته منذ ثلاثة أشهر. فقال له بازيل وهو غاضب:

- أتعرف من تكون؟ صبي مراهق!

وقام بازيل فجأة ليتخذ وضع الجلوس على السرير، فانقلب جهاز نقل الدم ووقع قليل من الدم على السرير، فاندفع لوكو فى الممر لينادى الممرضة وعندما رأت ما حدث لم تستطع أن تمنع نفسها من توبيخ المريض قائلة:

- تبا لك، ما هذا الذى فعلته؟ إنك لست بصبي!

فدوى صوت ضحكتهما فى الغرفة.

كان الشيء الوحيد الذى يجمع بينهما هو اليتيم وكذلك ...

وقال بازيل:

- إن اليتيم يشبه القطار فهو يضم عدة درجات وقد حالبنى الحظ أن أسافر فى الدرجة الأولى.

وكانت هذه وسيلته المهذبة والمبالغ فيها إلى حد ما لإسداء الشكر للخالة ليدنيا والعم بقطر اللذين لم ينجحا في العناية به أو فى تنشئته تنشئة سليمة. ولكن فى هذه العائلات الكبيرة لا أحد يعرف معنى الوحدة، حيث يمكنك مشاهدة ثلاثين أو أربعين شخصا على شاطئ الإسكندرية مجتمعين حول حفلات الغذاء السعيدة. وهكذا عرف بازيل شيئاً من الدفء العائلى والحنان والضحك.

كان لوكو فى الثانية عشرة من عمره عندما اكتشف والدته مية فى المطبخ وفى يدها زجاجة مكسورة. وبعد ذلك بفترة بسيطة رحل والده ف شعر الصبى بالذنب من اختفاء أمه وتخلى والده عنه. ولم يستطع أى شخص فى مؤسسة الأحداث أن يبعد عنه هذا الإحساس، أو أن يشملهم بلمساته الحانية التى كان يعجز عن طلبها.

وبعد ذلك، انضم لوكو إلى مجموعة الأحداث بالقرب من مدينة نونتار ولم يعترف به مجتمعه، ولكن اعترفت به جماعة هؤلاء الأصدقاء عند ارتكابه لبعض الأعمال المستهترة والمجنونة التى كانت تثير إعجاب زملائه الذين يكبرونه. وقد صرح له بازيل أثناء لقائهما الثانى فى بار مونبرنص قائلاً:

- فى الحقيقة، إنك تموت خوفاً.

اغتاظ لوكو وكاد أن يخرج سكينه، إلا أنه فى المرة الثانية وعد بازيل أن يبتعد عن لعبة القمار الروسى وأنه سيقى بوعده على الأقل فيما يخص هذا الأمر...

ولقد كان فالادييه يشرح لبازيل:

- إن الهدف من العلاج الكيميائي هو تدمير النخاع المريض، ولكن الخطورة تكمن أيضا في تدميره لما تبقى من نخاع سليم، حيث إنك تعاني أيضا من نقص في كرات الدم البيضاء، ومن هنا يأتي خطر العدوى. هذا إلى جانب أنك تعاني من نقص في الصفائح الدموية مما قد يتسبب في نزيف، وهذا الشحوب وضيق التنفس يتطلب نقل كرات دم حمراء.

وهكذا كان بازيل يتلقى دمًا من أناس آخرين، مما كان يثير لديه شعورا بالضيق غير متوقع ويجعله يفكر في الأمر تفكيرًا عميقًا؛ فكان يتذكر حالة الطفلة ذات السنوات السبع التي خضعت لواحدة من أكبر عمليات القلب المفتوح وكان ذلك في عام ١٩٥٧، ١٩٥٨ أي بعد افتتاح شركة أوتر تار بوقت قصير. كانت تلك الفتاة تدعى دانيال وقد تم تجهيز استثنائي لهذه العملية؛ حيث تم تحضير مسبق لعشرات اللترات من دم المتبرعين الذين يتم استدعاؤهم كل نصف ساعة.

لم يكن بـ ب يستجيب مطلقا لنداءات الصليب الأحمر، والآن يتساءل عن السبب فهل كان ذلك لخوفه من الحقن، أم لنفوره من رؤية الدم؟ أو بكل بساطة لأن ذلك لم يكن من عادات بيئته في مصر؟

لم يطرح أحد في المستشفى على بازيل هذا السؤال، فكل مريض وكل جريح يستفيد من نقل الدم حتى وإن لم يكن قد تبرع بالدم في يوم من الأيام، حيث إن هذا النوع من تأمين الحياة كان يتساوى فيه كل من المشتركين وغير المشتركين. أما بالنسبة لبازيل، فالمجانية تمثل له أمراً طبيعياً ولكن هل هناك أثمن من الدم يدفع من أجله؟ إلا أن بازيل الذي لم يكن قد دفع شيئاً وجدَّ من يدفع له، لكن جهله بهذا الشخص كان يصيبه بالاضطراب. فما المقصود من هذا التكتم؟

وقد كان يقول:

- غير معقول ألا أعرف مطلقاً من أعطاني دماً؛ فالمتبرع كان دون شك يحب أن يتعرف عليّ.

لقد كانت الآلة الطبية تتدخل بين اثنين ليتقاسما أعز ما يملك كل منهما.

فالتب وهو الذي يقرر إذا ما كان الأول قادراً على العطاء أو غير قادر، وإذا ما كان الثاني محتاجاً للأخذ أم لا.

ولكن أين يكون السرور في هذا الأمر؟ فالخدمة بالنسبة لبازيل كانت أولاً مناسبة لإقامة علاقة وعقد روابط مع إنسان ما، إلا أن هذه الأنبوبة المجهولة المصدر والتي لا تحمل سوى رقم، كانت تحيره حيرة كبيرة.

وعندما أخبر فالاديبه والمرضات بتساؤلاته، لم يتلق سوى إجابات متفق عليها مسبقاً، أما الإجابة الصحيحة فكانت على يد سباك كان يرتدى "العفريّة" وقد أتى ليصلح صنوبراً فى غرفته حيث قال له:

- إننى أتبرع بدمى منذ خمس سنوات أى منذ أن وقع أخى ضحية حادث طريق، ثم تم إنقاذه عن طريق نقل الدم.

فقال بازيل:

- فهمتك. باختصار إنك تقوم بالمثل.

- ماذا. لا ليس بالمثل! وذلك لأن عندى عامل ريزاس سلبياً، وحيث إن فصيلة دمي نادرة جداً، فليس لى الحق فى الامتناع عن التبرع. أتفهم!

- نعم فهمت، وعسى أن يحفظك الله من حوادث الطريق ...

- آه، لا، لا، لا أعتقد أننى سأعرض لذلك الأمر! حيث إننى لا أسافر سوى بالقطار وذلك أيضاً نادراً ما يحدث.

لم يستطع بازيل أن يخفى ابتسامته وقال:

- ألا تحب السفر؟

فقال:

- ما أحبه هو أن أمتلك بيتاً صغيراً على شاطئ نهر المارن وأمارس هواية الصيد بالشبكة.

فقال بازيل:

- إنن لا يتبقى لك إلا أن تجد البيت الصغير.

فرد قائلاً:

- أتمزح! إننى لا أقدر على ثمنه.

فقال بازيل:

- لا، إننى على يقين أنه بالإمكان أن تجد منزلاً بسعر معقول، فإذا أردت يمكنى أن أوصلك بأحد أصدقائى ليرتب لك هذا الأمر.

ولا أعرف إن كان قد ساور الشك عاشق الصيد أم أنه لا يحب التورط فقد رد قائلاً:

- سأفكر فى ذلك. أشكرك.

لم يصر بازيل على الأمر وعاد إلى الحديث السابق قائلاً:

- وهل ترى أنه من الطبيعى أن تتبرع بدمك دون أن تأخذ ثمنه؟

- ثمنه. أتريد أن أتلقى ثمناً للدم؟ هل تعتقد أننى أفقد شيئاً...
ألا تعرف أن الدم يتجدد على الفور.

فوافقته ابن عمى بإيماءة من رأسه ثم قال:

- ولكنك فى النهاية لماذا تتبرع بدمك؟

فهز الرجل كتفيه وقال:

- أنا لا أعرف لماذا ولكنك تسأل أسئلة غريبة. ولكن لماذا لا

أنتبرع بدمى؟

- سؤال أخير، قل لى:

- أأضايقك الطابع السرى الذى يحيط بهذا المنح؟

فرد السباك مندهشا:

- سرى؟ وكيف يكون سرىا؟ إننى لا أخفى نفسى ولكنى

أذهب مع الزملاء الذين يتبرعون بدمهم مثلى. ولكن لديهم عامل ريزاس موجب، والعاملون فى نقل الدم يعرفوننا جيدا ويقدمون لنا فنجانا من القهوة وبسكويت، حيث يسود جو لطيف فى غرفة التبرع.

فقال بازيل:

- أشكرك شكرا جزىلا.

ولكن ترى، هل قدم بازيل الشكر للرجل من أجل المعلومات

التي حصل عليها، أم من أجل كرات الدم الحمراء التي علت قيمتها منذ ذلك الحين؟

وفى اليوم التالى أخبرنى بازيل قائلاً:

- تخيل أن الدم الذى يجرى فى وريدى دم إنسان آخر، ولكن من ذلك الأخ المجهول وربما تكون أختاً أو زوجة، أنتفهم ما أقول!

لقد كانت الدموع فى عينيه وهو يقول:

- وها أنا ذا مرتبط بها أو به أو بهم جميعاً... بروابط الدم.

لقد انتهى العلاج الكيميائي على الأقل مؤقتاً، لذلك استطاع بازيل استقبال عدد أكبر من الزوار الذين لن يحتاجوا بعد ذلك للرداء الأبيض أو القناع (الماسك).

وكان أول من سارع بالمجيء السيد إميل الفارس الذي كان يؤكد لبازيل:

- لقد كنت أصلى من أجلك يومياً.

لكن بازيل لم يكن يصدقه تصديقاً كاملاً... وذلك لأن هذا اللبناي كان يرغب في تلقى خدمة. وبعد حديث طويل دار بينهما بشأن تمويل مشروع يكفله تحت رعاية إميل الفارس لصالح جمعية تخدم المدارس المسيحية في صعيد مصر، سرعان ما درس الفارس الملف دراسة وافية وفعالة.

كان بازيل قد نجح في إقناع جون وجان أورونج اللذين كانا قد أتيا مرتين لزيارته في المستشفى، ألا يأتيا مرة أخرى، حيث كان يحدثهما عبر الهاتف حوالى مرتين يومياً؛ مما سمح له أيضاً بالتحدث مع الأطفال، أما بالنسبة لإرنيست زيمبرباخ فكان يصيبه الرعب عند

ذكر المستشفيات فهي في نظره مصدر لجميع الميكروبات، وقد اعتذر عن عدم مجيئه عن طريق خطاب لطيف ومعه حافظة تواليت أنيقة من جلد الثور، ومن الواضح أن توبيخ بازيل له عبر الهاتف منذ عدة شهور لم يخفف من عبئه.

أما السيد بيير لوساج الذى كان شارذاً كعادته، خلط بين مستشفى سان لو ومستشفى سان جوزيف. فنزل فى الحى الرابع عشر وبعد أن وجد العنوان الصحيح استقل سيارة أجرة قادتته إلى باريس من الجهة الأخرى ولكنه لم يستطع أن يرى بازيل، حيث كان ميعاد الزيارة قد انتهى، وكان عليه فى اليوم التالى أن يسافر إلى مونتريال لحضور مؤتمر حول علم المحيطات. وللمرة الأولى سيبقى مسكنه خالياً ولكنى وعدته أن أذهب فى غيابه إلى هناك لأطمئن على كنوزه.

ومن بين المقربين لبازيل، كان أيضاً السيد روجيه مارينيللى الذى كان يمر باستمرار فى الصباح الباكر أو فى آخر المساء حيث كانت هناك تعليمات خاصة لدى الاستقبال تسمح له بالدخول فى غير مواعيد الزيارة؛ ولم يكن من الضروري أن يقوم صاحب شركة أوتر تار بتقديم بطاقته الشخصية عند الدخول، فبعد عدة أيام أصبح الجميع يعرفونه عن بعد، بيدانته ولحيته وقميصه المشجر بالورد، فمعه كانوا يقضون أوقات فرح حقيقية.

ومن كندا أرسل سامى دبور سلة ورد هائلة مرفقا بها بطاقة
تعارف فقال ب ب وقد امتلأت عيناه مكرًا:

- لقد نسى أن يكتب "لابن عمى الحبيب" فهل كنت سأكف
عن الدفع؟

و ذات مرة بعد الظهر، جاءت لورانس موبرجيه بصحبة
المستشار الذى من المتوقع أنها ستتزوج. وهى كما هى لم تغير من
عطرها أو طريقة تصفيفها لشعرها، بل يبدو أن فكرة الزواج المقبل
كانت تملؤها فرحا، فها هى تمزح محاولة أن تثير جوا جميلا بعدما
وجدت بازيل وقد ارتفعت حالته المعنوية. كنا نشعر أنها منزعة فى
هذه الغرفة، حيث كان التدخين ممنوعا فكانت تحرك ولاعتها المطفأة
وتقول بعض عبارات توحى بابتهاج كاذب.

ويبدو أن الزوجين سيقبعان فى مدينة ليون بعد قضاء شهر
عسل فى صعيد مصر. وسأل جون بارتون دو فلورى، وهو هاوٍ
لركوب الخيل ب ب إذا ما كان هناك مربط للخيل بالقرب من المكان
أم لا، فرجع بازيل إلى إحدى مفكراته ثم اتصل بمدير المؤسسة
الرئيسية للروسية فى منطقة نهر الرون فقام الأخير بتحديد موعد.

أما عن سابين فقد جاءت مرتين لرؤية بازيل الذى كان قد تأثر
لرؤيتها تأثرا خاصا. أما أنا فقد فانتنتى فرصة لقائها فى المرة الأولى،
لكننى فى المرة الثانية صاحبتيها إلى محطة المترو، وقد ذكرت لى

أنها قد انتقلت من منزلها لتسكن استديو آخر به مصعد. وكنت سعيدًا عندما عرفت أن أحدًا لم يخلفني في غرفة التصفية "الميزانين" فوق شجر الكريز...

وبالطبع لا يمكن أن أغفل الحديث عن الزيارة المفاجئة التي هزت كيان المستشفى لمدة أسبوع، ففي ١٥ نوفمبر حوالى الساعة الخامسة، حيث تعرفت ممرضتان على السيد جيلباريكو في الممر، وذلك على الرغم من نظارته السوداء. فقد جاء هذا المغنى في زيارة خاطفة عشية احتفال سيقام في الضاحية، حيث قابل بازيل ثم قال له:

- أنت معفى من حضور الحفلة الغنائية غدا بعد الظهر، ولكن إياك أن تتخلف عن الأولمبياد في فبراير هل دونت التاريخ؟
٣ فبراير.

وبعد خروجه من الغرفة بعشر دقائق، التف حوله المعالجون والموظفون والمرضى حيث وقع لهم بلطف على الأتوجراف ولكن الرجل الذى كان يصاحبه - وهو إما السكرتير أو "البادى جارد"- قاده نحو سيارته.

وكان لهذا الحدث الباريسى عظيم الأثر فى زيادة شهرة ب ب حتى أصبح كل من فى الدور يحرص على ملاحظة الأشخاص الذين يدخلون حجرته. حيث كانوا يلاحظون من حين لآخر وجها معروفا. وكان عدد الزائرين المشهورين منهم أو غير المشهورين يتزايد أكثر

فأكثر، حتى إن مانويلا لم تعد تحتل هذا الازدحام، وكنت مثلها أشعر بالضيق والقلق، حتى إننا كنا نتساءل هل سنرى تدافع شارع ريمون لوسوران؟. لقد كان بازيل يحرص فعلا على توزيع ابتساماته، إلا أننا كنا نشعر أنه متعب ومتضايق، حيث إنه قد حدثنا مرة أخرى عن الحادث الأليم الذى أودى بحياة والديه فى طريق الصحراء ولم أنم طوال الليل. وللمرة الأولى أدركت أنه من المحتمل أن يتركنا هو الآخر. وأثناء فترة ما بعد الظهر قامت مانويلا باقتحام مكتب رئيسة الممرضات وقالت مهددة:

- إذا لم يتم اتخاذ أى إجراء سأقف بنفسى فى الممر لمنع الدخول.

ومن اليوم التالى حُدِدَ عدد الزائرين للغرفة رقم ٣.

(٤٧)

فى رزمة الخطابات التى وصلت إلى شارع ريمون لوسوران
كان يوجد هذا الخطاب المكتوب بخط مرتعش:

٢٥ نوفمبر ١٩٦٥

عزيزى السيد باتركانى،

أكتب لك من دار المسنين التى جنئت إليها منذ عامين مشلول
الساقين. إننى لا أترك السرير سوى لأجلس على كرسى متحرك لا
يقلنى إلى أى مكان. ومنذ وفاة كلبى لا شيء يهمنى فى هذا العالم
الكئيب. ذات مساء حاولت الانتحار بابتلاع كل السموم المترصدة
على المنضدة الموجودة بجانب السرير، لكن الطب استبسل حتى أحيا
جثتى من جديد فهم يهتمون بى كما ترى، ومنذ ذلك الحين حتى
السكين يمنعونها عنى أثناء الوجبات ويربطوننى فى الليل كأننى
حيوان. فقررت أن أتلقى بالهدوء لبضعة أسابيع حتى يطمئن
الحراس وأستطيع الكتابة، فالأطباء والمرضات مقتنعون أننى قد
عدت إلى رشدى، آه إلى رشدى! أتوسل إليك يا صديقى العزيز أن
تعطينى الوسيلة لأنهى هذا العذاب ولا أقول لك هذه المرة أن هذه

الخدمة سأردها لك، وعلى أى حال من المعروف عنك أنك لا تحب هذا النوع من الوعود.

تحياتى،

فيليب أتوبان

تساءل لوكو:

- ما هذا؟

قرأ بازيل الرسالة وهو صامت للمرة الثالثة وفى النهاية قال لى:

- أعطنى شيئاً أكتب به.

وأخذ يكتب لمدة ربع ساعة ثم طلب منى أن أذهب بالرد إلى العنوان المذكور. كانت دار المسنين ذات الإشراف الطبى تقع فى أقصى غرب باريس بالقرب من منطقة سان جرمان أون ليه، فاقترح لوكو أن يوصلنى قاتلاً:

- يمكننى أن أوصلك بدراجتى البخارية.

كنا ننقل من ميدان لآخر وأنا أمسك بقميصه، وكلمما كانت الإشارة خضراء كان ينطلق بسرعة فائقة كما لو كانت شرطة المدينة تطاردنا.

كانت دار "الليلا بلو" يكسوها الزرع ويحيط بها سور من الطوب؛ دخلت الدراجة في ممر محفوف من الجانبين بأشجار الزيزاقون. وانطلقت على الإسفلت محدثة صريراً ووقفنا أمام المدخل بالضبط. كان هناك مسنان نحيفان جالسان على دكة في الحديقة غير ظاهرين، كانا يرمقان إلينا بنظرات يملؤها الرعب، فإذا بلوكو يقول لي:

- إنني لن أدخل هذا المعمل، سأشعل سيجارة وأنتظر حتى تعود، وعليك أن تسرع، إن لم تكن تود العودة إلى باريس في كرسي متحرك.

كانت تعلى السلم امرأة عجوز صغيرة الحجم، يسيل لعابها على فستانها، فسألتها عن حجرة السيد أتويان فبدأت تصرخ بصوت حاد وتأتي بحركات مجنونة غير سوية، فخرجت ممرضة من الصالة هدأتها وأرشدتني إلى الحجرة رقم ١٢.

رأيت بعض النزلاء في ممر الدور الأول يتقدمون بصعوبة على مشاية وكان الباب موارباً فصرخ صوت أجش:

- من أنت؟

فارتعدت خوفاً، حيث كان هناك رجل منتصب في كرسيه المتحرك، ذو حواجب بيضاء كثيفة ومبعثرة ونظرة حادة وكان يرتدى روب دو شومبر نبيتي اللون.

ولم أكد أقدم له نفسى حتى شعرت أنه صدم وتمتم قائلاً:
- كنت أعتقد أنه سيأتى بنفسه.

فقلت:

- إنه لن يستطيع فهو يرقد فى المستشفى... وعلى أى حال
أعتقد أنه سيشرح لك ذلك فى هذا الخطاب.

فتح أتوبان الظرف بعصبية وقرأ صفحتين من خطاب بازيل
ونظر إلى نظرة مرعبة دون أن ينبس بكلمة.

ولأننى كنت على علم بأن بازيل قد أعطاه رقم خطه
المباشر سألته:

- ألا تريد أن تتحدث إليه؟

فرد بلهجة حازمة أو [بصوت قاطع]:

- لا أشكرك.

كانت شخصيته مؤثرة، لكن لم يكن يتسنى لى بحث هذا الأمر
وقلت له بإصرار:

- ماذا أبلغه من طرفك؟

فتصلب وجهه دون أى تعبير.

فقلت:

- هل يستطيع هو الاتصال بك هنا بنفسه؟

فهز رأسه بالكاد رافضاً. فشعرت بأن موجة من الغضب
تجتاحني وصرخت قائلاً:

- إذا تستطيع على الأقل أن ترد عليه.

فحرك عجل الكرسي ليذهب نحو الشباك المسدود بسيج
الحديد ليعلن انتهاء المقابلة، فمشيت وأنا مغتاظ بعدما أغلقت الباب
بصرير مدوي.

كان أمراً طبيعياً ما لحق ببازيل من خيبة أمل إثر إبلاغي له
بما حدث وقال:

- لا بد إذاً أن أحدثه، هل لاحظت إذا ما كانت الغرفة بها
تليفون؟

فأجبت:

- لا يوجد، وقد أكدوا لي ذلك في الاستقبال.

- سوف نركب له خطأ، ولكنني أعرفه فإذا ما رفض التحدث
فإن الجنرال دي جول بنفسه لن ينجح في أن يجعله يرفع السماعة.

وضح بازيل لنا أن فيليب أتوبان كان بطلاً في المقاومة، وأن
الجستابو (البوليس السري الألماني) كان قد قبض عليه في عام

١٩٤٣ وعذوبه تعذيباً وحشياً ولكنه أقنع معذبيه بأنه قد قبل العمل لحسابهم وفور تحريره، استدرج الرجل الذى خان شبكته إلى فخ وأطلق عليه رصاصتين وأرسل جثته إلى الكوماندانا.

فكر بازيل قائلاً:

- إذا كان أتوبان حاول أن ينتحر مرة فسيعاود المحاولة مرة أخرى بأى وسيلة.

لم أر ابن عمى منفعلاً إلى هذا الحد من قبل، فقد استحوذ هذا الأمر عليه تماماً حتى إنه طلب منى إحضار مفكراته، وخلال ما يقرب من الساعة أخذ يتصل هنا وهناك طلباً فى استشارة كل من متخصص نفسى ثم متخصص مسنين وكذلك صراف...

وفى المساء زاره مخبر خاص يدعى جاتينول، كان بازيل قد خلصه من ورطة منذ عدة سنوات، وذلك ليطلب منه أن يتحرى فى الخفاء عن أتوبان.

أخبرت الممرضات البروفيسور فالاديهيه بكل هذه الضجة فجاء ليوبخ المريض قائلاً:

- يجب عليك أن تراعى نفسك فقد ارتفعت درجة حرارتك كما أن الجلطات الصغيرة المنتشرة على ذراعك لا تنبئ بخير.

نام بازيل قليلا فى فترة ما بعد الظهيرة. لكن فى المساء عكف على اتصالاته التليفونية وهو ينظر فى مفكرته. ولم يكن يفكر سوى فى طلب فيليب أتوبان، فطلب من روجيه مارينيللى الذى يحسن التصرف أن يأتى ليتحدث معه فى هذا الصدد فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة.

(٤٨)

اندعش صاحب شركة أوتر تار من الأهمية التي كان يوليها
بازيل لقضية فيليب أتوبان فقال له:

- ليس من المعقول أن ينصت المرء لهؤلاء المسنين
المخرفين الذين سئموا الحياة والإلا...

فرد بازيل بلهجة حادة:

- أتوبان ليس عجوزا مخرفا، إنه رجل محترم وسيكون قادرا
على عمل أى شيء لينفذ مشروعه.

فهمز مارينيللى رأسه وقال:

- ولماذا ستجن، لن يموت إذا تجاهلت طلبه. حان الوقت
لأقول لك ذلك!

فقال بازيل:

- لا أستطيع تجاهل طلبه.

فانفعل الرحالة وقال:

- إننى لا أفهم ما تسعى إليه يا بازيل، أتريد منعه من الانتحار أم تريد أن تجد له الوسيلة؟

لم يحصل روجيه مارينيللى على إجابة من ب ب واعتقدت فى هذه اللحظة أن بازيل نفسه لا يعرف شيئاً، ولكن الأمر الوحيد الذى كان يفرض نفسه عليه هو ضرورة الاستجابة، فهناك من يطرق بابه وهو لا يستطيع أن يفتح له.

وقد حذر مارينيللى بازيل قائلاً:

- انتبه يا بازيل! فإن العدالة لا تمزح فى مثل هذه الأمور وعلى أى حال فإننى أعتقد أن لديك أعمالاً أخرى يجب أن تهتم بها. ألا تعتقد أنه لا بد أن ترعى صحتك؟

فتمتم بازيل قائلاً:

- أنت تعرف أن ذلك لا معنى له.

وعندما شعر مارينيللى أنه عاجز عن إقناع بازيل، اقترح أن يذهب هو بنفسه فى اليوم التالى إلى دار المسنين.

بدأ الرحالة يتكلم مع مديرة دار "ليلا بلو" دون أن يذكر خطاب أتوبان.

بنت له هذه السيدة التي كانت في الخمسين من عمرها جافة بعض الشيء، ولكنها ليست غبية أو عديمة الإحساس. فقد أكدت لمارينيللي أنهم قد فعلوا المستحيل ليرى الحياة ممتعة ولكنه لم يعد يهتم بأى شيء ولا حتى الجرائد، فهو دائماً في عزلة مع نفسه. ذهب مارينيللي إلى الحجرة رقم ١٢، وقال لأتوبان:

- لقد كان بازيل يود أن ينقل لك بنفسه تحياته الحارة وقد كلفني أن أبلغك أنه بإمكانه أن يجد لك كنبا ألمانياً جديداً فى أسرع وقت، وإذا لم تقبل الدار الحيوانات فسيرتب لك الإقامة فى دار أخرى للمسنين لا تقل راحة عن هذه الدار.

فرد أتوبان بأسلوب جاف:

- إننى لم أطلب كنبا.

فقال مارينيللي:

- على أى حال إنك تحتاج إلى التغيير... ستتنظم لك وكالة السفريات الخاصة بى رحلة حيث شئت فى أى قارة من القارات: لمدة أسبوع، أسبوعين أو شهر... ولن يكلفك ذلك فرنكا واحداً، ولا تحمل هم التكلفة سأرتب لك السفر برفقة ممرضة.

فما كان من أتوبان سوى أن أدار كرسيه ناحية النافذة.

هذا وقد رفض القائمون على الدار تركيب خط تليفون فى الغرفة ١٢ "حتى لا يثيروا الغيرة" بين النزلاء، فاتصل بازيل بمكتب وزير الداخلية وفى اليوم التالى قام رئيس المديرية شخصيا بالاتصال بمديرية الدار ليطلب منها تركيب خط للسيد أتوبان.

لكن كما توقع ب ب، رفض أتوبان الرد على التليفون رفضاً باتاً حتى عندما كانت إحدى الممرضات ترفع له السماعة وتعطيه إياها، كان يظل جامداً ولا يرد، وتقرر إذا سحب "الفيشة" حتى لا يزجوا النزلاء الآخرين.

لم تكن الغرفة رقم ١٢ ترد، وعلى بعد بضعة كيلومترات ساد التوتر فى الغرفة رقم ٣، استحوذت على بازيل بعض الأفكار السوداوية وتواردت إلى ذاكرته بعض الإخفاقات الماضية خاصة تلك التى تتعلق بذلك الشاب الذى أتى من ليون ليتقدم إلى بازيل فى مكتب شارع ريمون لوسوران ذات يوم، وكان ذلك فى فترة ما بعد الظهيرة من عام ١٩٥٩ حيث حكى عنه بازيل قائلاً:

لقد كان يرغب فى العيش فى تاسمانيا، وكنت متعباً فى ذلك اليوم وسمعته وأنا شارد الذهن وبدا لى هذا الطلب تافهاً. وكان هناك أناس آخرون فى الغرفة المحاذية وبعدها بعدة أيام علمت أن هذا الشاب قد ألقى بنفسه أمام قطار.

فتساءلت مانويلا:

- وماذا بعد، من المحتمل أنه كان يعاني من مشكلة عاطفية.

لكن بازيل عاد إلى كلامه وقال:

- لم أعرف كيف أستمع إليه؛ لم تفهمه عيناى، كان على أن

أرى رعدة يديه...

أما الآن مع أتوبان فالأمر غير ذلك، فهو رجل وصل إلى

نهاية حياته ويطالب بطريقة واضحة وواعية، أن ينهيها أفلا ينبغي

أن أسمع هو أيضا؟

لم يكن لدى بازيل أى اعتراض على مبدأ الانتحار، ولكن

يتوقف الأمر على أشياء عديدة. فإذا كان انتحار شاب فى العشرين

من عمره وهو يلقي بنفسه أمام قطار يبدو شيئا غير محتمل، فمن ذا

الذى يستطيع أن يمنع عجوزا وحيدا لا ينتظر أى شيء من الوجود

أن يرقد رقدته الأخيرة؟ كان بازيل يفكر فى المرض الذى ينخر فى

بدنه، يا له من سرطان لعين! فهذا الذى كان يعشق الحياة لم يكن

ليتصور أن هناك من يرغب فى التخلص منها. عند القبض على

فيليب أتوبان عام ١٩٤٣ ألم يرفض هو نفسه ابتلاع حبة السيانونور

التي دائما ما كان يحملها معه، على الرغم من أنه كان واعيا لما

ينتظره من أشد ألوان العذاب. ولقد أثار هذا الحدث كثيرا من الأفكار

لدى بازيل منذ سنوات قليلة حتى أنه ظل يتساءل ماذا كان سيفعل

هو نفسه فى مثل هذا الظرف وكان يقول لنا:

- آه، فقط لو أستطيع التحدث معه!

وعند الحديث عن خروجه من المستشفى لفترة وجيزة، فإذ به يواجه برفض صريح من البروفيسور فالادييه، كما وبخته مانويلا قائلة:

- هل تريد أنت أيضا، أن تودى بحياتك؟

ثم ندمت على ما قالت وأضافت في رقة قائلة:

- انتظر حتى الشفاء! فلدى رؤيتك بهذه الحالة، لن يروق لهذا الرجل التمتع بالحياة.

كان بازيل أضعف من أن يعترض وحاولت أن ألقت انتباهه إلى موضوع آخر قد ورد في خطابات أخرى وصلت إلى مكتب شارع ريمون لوسوران، ولكنه كان يعاود الحديث عن أتوبان. ووفقا لتقرير المخبر، عرف بازيل أن أتوبان لم يكن على علاقة بأى شخص منذ عدة سنوات، فتساءل قائلاً:

- من الذى يستطيع أن يجعله يستمع إليه؟

فتعجب مارينيللى قائلاً:

- لعلك تريد مانويلا أن تذهب إليه لتعزف له؟

فقال بازيل فجأة:

- إننى أفكر فى شخص ما.

و بعد عدة ثوان قال:

- جون... نعم جون أرونج.

فاندهش مدير شركة أوتر تار وقال:

- ما الذى أدخل الشركة الوطنية للسكة الحديد فى هذا الأمر؟

فقال بازيل:

- إن جون أرونج هو أحد قدامى مقاومى فاركور وهو الذى

قد يجد قبولا لدى أتوبان.

وبالفعل تم الاتصال بزوج جان الذى كان مستعدا بالطبع لأن

يقوم بأى شيء من أجل بازيل، فاقترح لوكو أن يذهب ليحضره

ويصعبه بدراجته البخارية حتى دار الليلا بلو.

وعلى الفور قابل أتوبان المبعوث الجديد بغضب عارم ولكن

جون لم يذكر ألقاب المقاومة كما نصحه بازيل.

فقال الرجل صاحب الكرسى المتحرك:

- أدرك تماما أن بازيل لا يستطيع الحضور ولكن لماذا يبعث

لى بكل هؤلاء الأشخاص؟ لقد طلبت منه خدمة محددة قد تكون

تعرفها؟ فهل يريد تقديم هذه الخدمة أم لا؟

تمتّ جون أورونج ببعض الجمل المرتبكة ثم أخذ يحدث نفسه حديثاً مطولاً كشف خلاله عن قناعاته، فبالنسبة لمناضل الحركة الكاثوليكية، الحياة لا يمتلكها إلا من وهبها.

فتمتّ أتوبان قائلاً:

- لقد سمعت هذا من قبل. فزوجتي التي تتسم بعدم الحذر مثلك في الفاركور ذهبت دون عودة إلى رافنسبروك عام ١٩٤٣، ولكنها الحرب أليس كذلك؟ كنا نقاتل ونعيش، وعن نفسي، لقد أحببت كثيراً السنوات التي أعقبت الحرب. وفي عام ١٩٥٩، اصطدم سائق أرعن، كان تحت تأثير قلة قليلة من الكحول في الدم، بالسيارة التي كانت تقلّ أبنائي وكان الصدام مروّعاً. لقد وهبني الله إياهم كما قلت، ولكن ألا ترى أنه قد استردهم قبل الأوان؟

كان أتوبان يرغب في الموت، وكانت هناك عدة طرق لإرضائه، إلا أن بازيل لم يكن يطيل الحديث في هذا الصدد، وكنتم أعلم جيدا أنه لا يحتاج أكثر من اتصال تليفوني ليقدم له هذه الخدمة، فعلاقاته تضم عددًا من الصيادلة وضباط المخابرات، وأذكر من بينهم "الدكتور لواريه" هذا الغامض الذي رأيتَه يدخل البايب في هدوء حين صادفته مرتين أو ثلاث في شارع ريمون لوسوران...

لم تكن الصعوبة في تنفيذ طلب أتوبان مادية، ولكن كانت في معرفة كيفية تحقيق طلبه، حيث كنت أشعر أن ابن عمي يتأرجح بين أمرين، فهذه القضية تحرك في بازيل مشاعر معقدة، ودون شك كان يرجع بفكره للكيلو ٦٥ على طريق الإسكندرية.

وعن فيليب أتوبان، فقد درس الهندسة، وقد وجد بعد الحرب وظيفة في البحث العلمي. وكان يستطيع أن يسلك الطريق السياسي مثله في ذلك مثل كثيرين غيره، لكن صرامته وكبريائه وربما طبعه السيئ، قد حالوا دون ذلك، إلا أنه بقي على اتصال بأصدقاء قدامى في المقاومة السرية (جماعة المقاومة ضد الاحتلال الألماني في فرنسا). وبعد أن تعرف على الأستاذ بليسيه بونتال في القاعة بشأن

قضية ميراث، سرعان ما نشأت علاقة صداقة بينه وبين بازيل، واستطاع بواسطة بليسيه بونتال أن يتصل بأنصار دى جول ذوى النفوذ، ولكن أتوبان انطوى على نفسه خاصة بعد وفاة أولاده.

كان ب ب يتذكر مناقشات دارت فى الماضى بينه وبين المهندس أتوبان، فمن الواضح أن هذا الرجل قد أثر فيه حتى إنه كان يقول:

- يبدو أنه عندما كان يعود أنصار المقاومة، منهكة أجسادهم، كانوا لا يزالون قادرين على أن ينظروا نظرة معبرة أو أن يبتسموا ابتسامة يطمئنون بها زملاءهم فى الزنزانة. وهذا يعنى يا سيد أرسطو أن تقديم الخدمة دائما ما يكون ممكنا وفى متناول أى إنسان.

كان هذا يوحى له بعقد مقارنات كثيرة كما لو كان يستبصر نتائج خدماته:

- ومن أجل مساعدة الأفراد على الخروج من ورطاتهم، يكفى أحيانا القيام بأشياء قليلة جدا ولتكن دفعة بسيطة لا تكاد تذكر حتى يتمكن إنسان مكبل من النهوض ثانية أو أن يعرف أقصر الطرق لتحقيق هدفه فيكفى أن تدير عجلة الحظ الكبرى فى اتجاهه ولكن دون أن يشعر...

فى هذه المرحلة تحديدا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كان أتوبان شديد الإصرار على الموت مما زاد جالة بازيل المرضية سوءا. كان

البروفيسور فالاديبه قد نقل إلينا قلقه ولكن كنا جميعا نقف مكتوفي الأيدي. وكنا برفقة مانويلا، نقضى ساعات طويلة في حجرة بازيل محاولين دون جدوى لفت انتباهه إلى موضوع آخر، ولكن بازيل كان يقول:

- إننى ليس فقط لا أستطيع مساعدة أتوبان ولكنه أيضا يرفض مكالمتى.

كان هذا الوضع يشبه وضع أولئك الناس الذين كانوا يعرضون عن بازيل، ويتظاهرون بعدم معرفته. هذا الشيء الذى كان بازيل لا يستطيع معه الحياة.

أىكتب لفيليب أتوبان مرة أخرى؟ كان بازيل يعرف أن ذلك لن يجدى وهو على أى حال لم يكن يحسن فن الكتابة، وإنما كان تأثيره فى صوته الحى وحديثه المباشر وجهاً لوجه؛ أو إذا تعذر فليكن عبر الهاتف، ويردد قائلاً:

- آه فقط لو كنت أستطيع محادثته!

كان التوتر يغمرنا جميعنا، حتى أن هناك أحلاماً مزعجة كانت تؤرق منامى، فقد رأيت بازيل ينادينى لأجلس بالقرب منه بعدما طلب منى غلق باب الحجرة ليهمس فى أذنى:

- هل تريد أن تسعدنى؟ فلقد أنهكتنى المرض، ولم أعد أحتمل الآلام، أنت وحدك تستطيع أن تساعدنى أن أتخلص من هذه الآلام.

وكنت أهرب في الممر ساحبًا مريضًا على كرسي متحرك.
ومرة أخرى رأيت زينة دكاش التي كانت قد انتخبت ملكة
جمال مصر وقد جاءت في زيارة للمستشفى بزینتها المتكلفة وحذائها
العالی، وكانت تحمل باقة ورد، وكانت تبدو عارية إلا من عقد من
لؤلؤ أبيض كان يتلألأ فوق نهدیها. وعند رؤيتها فقد بازيل وعیه
وكنت أحاول أن أعیده إلى الوعي ولكن دون جدوى.

لقد اكتشف البروفيسور فالادييه أن بازيل يعانى من إصابة
فى الرئة رئوى وقال لمانويلا:

- لا أخفى عليك فالأمر خطير.

فانفجرت فى البكاء، أما أنا فقد تحشرج حلقى وأمسكت
بذراعها لنقوم بجولة فى الحديقة كأخوين يتيمين دون ذلك الشخص
الذى اعتدت على أن أناديه بابا منذ وقت قريب.

كان ضيق النفس يزداد حدة، حيث كان يعانى من صعوبة فى
التنفس. ولكن هذا لم يمنعه أن يردد:

- إننى أدرك تصميم أتوبان، فسينجح لا محالة فى الانتحار.

كان ب ب يركز نظره على الباب الزجاجى للغرفة ١٢ التى
حدثوه عنها، حيث لم يكن الإغلاق المحكم للباب بالمفتاح ولا الحديد
بالشيء الذى يطمئن بازيل، وذلك لأن هذا الرجل الجالس على
الكرسى المتحرك كان فى إمكانه أن يقذف بنفسه من الدور الأول،
وكان يستطيع أيضا أن يهشم رأسه فى حائط أو يترك نفسه يموت
جوعا...

لقد كان بازيل مقتنعا بأن حياة أتوبان بين يديه، أما لوكو فقد خرج عن هدوئه وانطلق فجأة يتحدث عن أشياء غير مترابطة، حيث كان وحده هو الذى يفهم معناها:

- لقد ضقت ذرعا لعدم مساعدة شخص فى خطر، لقد ضقت ذرعا بمشاكل العوام، عواما كانوا أم خواصا، فليذهبوا إلى الجحيم.

إننى سأذهب لأقول لأولئك الأقدار...

كنت أنظر له وأنا مرعوب ولم أكن أعرف كيف أسكته، إلا أنه قد خرج من الغرفة فجأة.

ذهبت مانويلا لتأخذ نايها وبعد ما عزفت عزفا قليلا، توقفت وعيناها مملوءة بالدموع.

كان لوكو يندفع بدراجته البخارية بجنون نحو منطقة سان جيرمان أون ليه مخترقا إشارتين أو ثلاث دون أن يشعر، وبعد عشرين دقيقة اقتحم غرفة فيليب أتوبان وأغلق الباب بقدمه! وقال للرجل الجالس على الكرسي المتحرك وهو يمد له يده بمديّة

ها هو الشيء الذى كنت تبحث عنه.

فسأله أتوبان بهدوء:

- من أنت؟

- أنا صديق لبازيل باتركانى.

- أهو الذى أرسلك؟

- قلت لك إننى صديق بازيل.

- وأنا أسألك إذا ما كان هو الذى أرسلك؟

وبينما كان لوكو لا يزال يمدّد المديّة، إذا به يفقد القدرة تماماً فى السيطرة على نفسه، ويصرخ بصوت عال:

ألا ترى بالله عليك أنك تقتله! إنه يقلق من أجلك قلقاً شديداً، إنه مريض، مريض حقاً وليس فقط على كرسى متحرك. من أجل من تجلس على هذا الكرسي القذر! لا ينبغى أن تزعج العالم بأسره طالما أنك لا تريد هذه المديّة...

كان لوكو يبكى كطفل وهو ينتقل من فكرة لأخرى ويخاطب كل شيء، فلقد تحدث عن والدته التى لم تكن بحاجة إلى سكين:

- استخدمت عنق زجاجة مكسور.

وتحدث أيضاً عن الأب الذى انكسرت رجله فجأة وأكمل

قائلاً:

- كان ينبغى لى أن أحضر لك زجاجة...

فقال أتوبان:

- اهدأ.

فتغيرت نظرتة وكان العشاوة التي كانت تغطى عينيه قد انقشعت فجأة.

فصرخ لوكو باكيا:

قلت لك إنه على وشك الموت.

فاقترب أتوبان بكرسيه المتحرك من لوكو وأخذ يردد:

- اهدأ يا صغيرى، اهدأ، ثم أخذ السكين ووضعها فى جيب قميص لوكو. وأشار بيده على الطاولة التي كانت بجانب السرير وقال.

- هل تستطيع أن تضع فيشة التليفون:

وعندما دق جرس التليفون، كانت كامامة الأكسجين قد وضعت لبازيل وكان معنا روجيه مارينيللى الذى كان يسهر على راحته، وقام بالرد على الاتصال.

فتردد للحظات قبل أن يناول السماعاة لبازيل؛ لأنه كان يخشى صدمة عصبية عنيفة. لكنه كان يعرف أنه لم يعد يتبقى لصديقه الكثير.

أما ب ب فقد كانت عيناه نصف مفتوحة والسماعة مرتكزة بين أذنه والوسادة، حيث كان يستمع لأتوبان ويرد عليه بابتسامة.

وكننت أجهل ما يقوله هذا المقاوم القديم، لكن بازيل ظل متشبهًا
بالسماعة طوال فترة ما بعد الظهيرة كما لو كانت طوق نجاة.

وبعد فترة وجيزة، لحق بنا لوكو فلم يكن من بازيل إلا أن قال
له بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- شكرًا.

فرد لوكو بلطف:

- إن ذلك يسعدني.

هذا ولم يكن لابن عمى وريث ولا أحد يخلفه، لذا فقد اختفت الشبكة باختفائه، حيث لا أحد منا كان مؤهلاً لنسج شبكة أخرى مماثلة، فسيذهب كلُّ منا إلى حال سبيله، ولكننا سنظل للأبد نذكر رجلاً متألِّقاً ورصيناً وكأنه بارقة ضوء في الظلام.

وعند خروجنا من المقابر، ركب لوكو دراجته البخارية واجتاز الشارع الطويل المحفوف بالأشجار والهواء يلطم وجهه دون شك ليجفف دموعه. وقبل موت بازيل بأيام قليلة، كان روجيه مارينيللى قد وعد بازيل بأنه لن يتخلى عن لوكو.

أما مانويلا فقد رحلت مثلما جاءت في هدوء، حاملة نايها وحقيبتها، وعزفت سيمفونية لموتزارت على حافة النهر بالقرب من كوبرى لاتورنل.

ووفقاً للوصية القصيرة المحفوظة لدى السيد بليسيه بونتال، انتقلت شقة جيه لوساك للجمعية الخيرية، وكذلك بعض السندات المالية التى كانت فى حوزة بـ بـ.

ولقد كان يهمس لى عشية وفاته:

- أرسطو، يمكنك الاحتفاظ بمفكراتي إذا كان ذلك يروق لك، فيبدو أنك مهتم بها ولكنني لا أعرف ماذا يمكنك أن تفعل بها.

لم أقو حينها حتى على أن أشكره، فلقد شل الحزن فمي وعيني ویدی، وكنت على وشك أن أفقد ذلك الذى أرشدنى إلى قانون الحياة الحقيقى: " أن تجرؤ على طلب الخدمة وتتلقاها بمروءة وليس من الضرورى دائماً أن تردّها". كنت أراه يبتعد وهو الذى كان "ينترعنى" من شرقيتى فى الوقت الذى كان يغرس فى نفسى الفخر لكونى شرقياً.

نعم يا بازيل ما زالت المفكرات هنا على الدوام مع علب الأحذية المملوءة ببطاقات التعارف. علب الأحذية...

نعم، كلها هنا فى متناول يدي، ذات اللون الأزرق والأسود والأخضر والبنى الفاتح... ليس لها نفع ولكنها بالغة القيمة. وإبنى ألقبها من وقت لآخر فى أمسيات الصيف فى الحديقة، فهذا هو مزاجى.

المؤلف فى سطور:

روبير سوليه:

ولد فى القاهرة عام ١٩٤٦ وذهب إلى فرنسا وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وهو اليوم أكبر محررى صحيفة "لومند" الفرنسية.

ولولعه الشديد بمصر وبحضارتها وبتاريخها القديم، لم يفقد سوليه إحساسه بها فعند احترافه الكتابة، أصدر عدة مؤلفات ترتبط أحداثها بمصر وبمدنها؛ ومنها "الطربوش" و"سيمافور الإسكندرية" و"المملوكة" ورواية "مزاج".

وهناك أيضا بعض المؤلفات التاريخية وثيقة الصلة بمصر، والتى يتحدث فيها عن ظاهرة "إجيبنتو مانيا" مثل "مصر ولع فرنسى" و"رحلة المسلة المصرية إلى باريس" و"علماء بونابرت" و"حجر رشيد" وغيرها...

المتريجة فى سطور:

إيمان محمود الهباش

- ترجمت العديد من الكتب العلمية، والتاريخية، والأبحاث العلمية.
- تُدرّس اللغة الفرنسية فى مدارس خاصة، وتدرس قواعد اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى عدد من المعاهد الخاصة لما يربو على عشر سنوات، وتدرس العربية للأجانب.

حصلت على:

- دبلومة سكرتارية تنفيذية من الغرفة التجارية والصناعية (باريس)، وشهادة اليونس فرونساى من وزارة التربية والتعليم الفرنسية.
- دورة ترجمة الأخبار بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- دورة ترجمة الأخبار وتحريرها بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- شهادة ممارس للبرمجة اللغوية العصبية من البورد الأمريكى.
- دبلوم وممارس هينوثيرابى من البورد الأمريكى.
- دبلوم كورت من المركز العالمى للبرمجة اللغوية العصبية.

المراجعة فى سطور:

داليا حسام الدين عبد الحميد زعتر

- ليسانس الألسن فى اللغة الفرنسية.
- دبلوم الترجمة الفورية والتحريرية المعادل للماجستير.
- دكتوراه الألسن عام ١٩٩٩.
- محاضر بقسم اللغة الفرنسية - كلية الألسن - جامعة عين شمس.

محمود حنفى

التصحيح اللغوى

محسن مصطفى

الإشراف الفنى

عبر شبكة محيرة من العلاقات تحكى الرواية قصة شاب رحل عن مصر متجهاً إلى فرنسا في الخمسينيات، واستطاع مع الوقت أن يقدم خدمات ويحيك مؤامرات حتى أصبح قوياً. فترى ما هي بالضبط تلك الطرق التي كان يسلكها ذلك الشخص الغامض الذي يدعى "بازيل باتركاني" الذي ورث من أجداده الشرقيين حرفة التجارة والوساطة.

"المزاج" هي كلمة يفهمها الشرقي تلقائياً، وتصبح ترجمتها في الغرب؛ حيث إن لها معان كثيرة، فقد تعني الذوق الخاص أو الإرادة المطلقة أو الميل أو ربما خليط من ذلك كله.

حيرت تلك الشخصية كل من تعامل معها أو سمع عنها. كان بازيل قادراً على إثارة الدهشة أينما وجد؛ إما عن طريق نفوذه أو عن طريق الجاذبية التي يتمتع بها والتي تجعل النساء تنجذب إليه، أو ربما لأنه كان يطرح بطريقته أسئلة مهمة تغري وتحير كل من يقترّب منه وخاصة ممن كانوا يرجون منه خدمات.

هل كان "بازيل" يقدم تلك الخدمات من أجل المصلحة كما كان يظن البعض أو لأن "ذلك يسعده" كما كان يقول؟